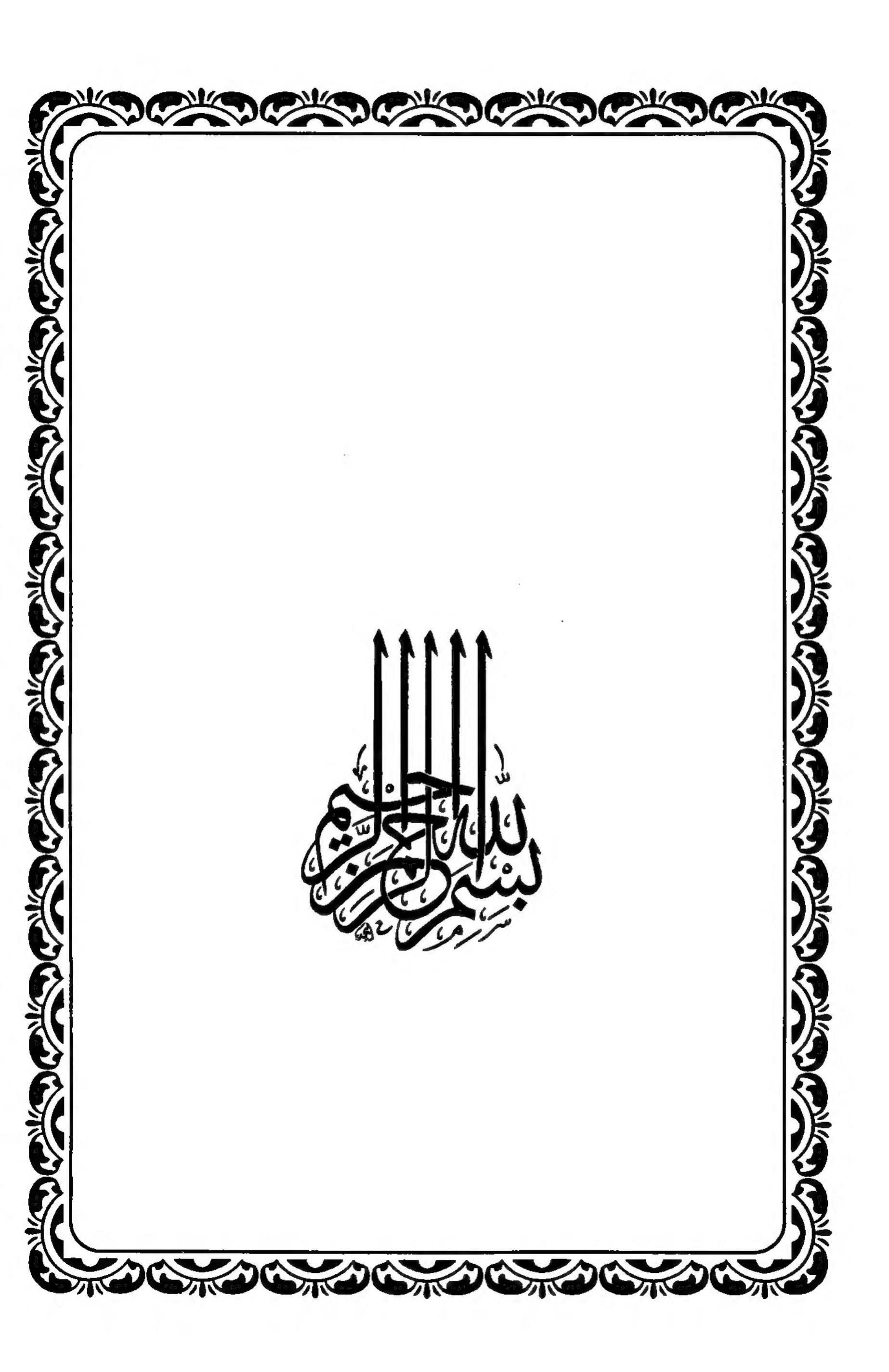
المدخل إلى الدراسات القرآنية

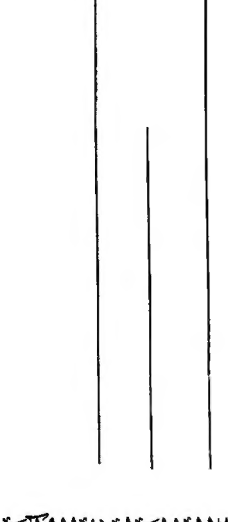
مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به
أضواء على وجوه الإعجاز والعلوم القرآنية

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ – ١٤٢٠هـ



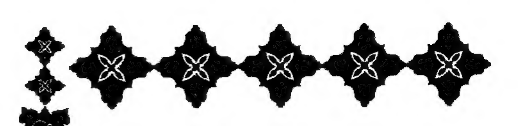

بسم الله الرحمن الرحيم



المدخل إلى الدراسات القرآنية

مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به

أضواء على وجوه الإعجاز والعلوم القرآنية



الطبعة الثانية

1431 هـ - 2010 م



للطباعة و النشر و التوزيع

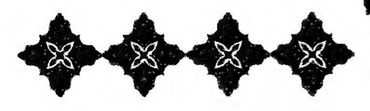
دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

الموضوع: علوم القرآن
العنوان: المدخل إلى الدراسات القرآنية
التأليف: الشيخ أبو الحسن الندوي

الورق: أبيض
ألوان الطباعة: لون واحد
عدد الصفحات: 152
القياس: 14×20
التجليد: غلاف
الوزن: 160 غ

التنفيذ الطباعي :
مطبعة الحافظ - دمشق
التجليد :
تجليد القصيباتي - دمشق





ملامح من حياة

العلاَّمة الإمام السيِّد أبي الحسن الندوي وشخصيته

بقلم : سيِّد عبد الماجد الغوري

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧هـ) .

• أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

• أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

• أبصرَ النورَ في ٦محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

• بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّع فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمَّة في اللغة العربية والأردوية ، ممَّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلَّم الإنجليزية مما مكّنته من

قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحضر دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعوية :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُينَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرَّفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء العرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرَّف فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبقيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأسَّى بالشيخ محمّد إلياس

الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُيِّنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يومنا هذا) .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ .

أهم مؤلفاته :

• نشرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيِّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَر أوّل كتاب

فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠ ، و« قصص النبيين » للأطفال و « القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

● ألّف كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

● دعيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشرتَ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

● أَلَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧ ، و « السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و« العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م و« المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

● شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأصْدَرَ مجلّة باسم « تعمير حيات » في الأردوية عام ١٩٤٨م، وكَتَب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و« الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و« حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي و« المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ، وكذلك أشرف على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعمير حيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

• سافرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنّاء في كل مجال ، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[١] .

تقدير وتكريم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الندوي محاضراته ـ مشاهداته ـ لقاءاته ـ انطباعاته » جمع وترتيب وتعليق لصاحب المقال ، صدر من دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م .

بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

• اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

• اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

• منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

• اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

• اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

• اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

• أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستانبول « تركيا » .

• اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

• تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوَّقتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

• وعدا ذلك تولّى العلاَّمة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

وفاته :

كان ـ العلامة الندوي ـ في حالة صحية جيدة قبل يومين من وفاته ، قضى عشرين يوماً من رمضان المبارك في مقره بدار العلوم ـ ندوة العلماء برفقة من أصحابه وزوّاره الذين يصومون معه في كل عام ، ولكنه في العشرين من الشهر غادر لكهنؤ إلى مسقط رأسه « تكية كلان » (الواقعة في مديرية « رأي بريلي ») ، لكي يقضي هناك العشرة الأخيرة مع أفراد عائلته ، ولما كان يوم الجمعة (وهي جمعة الوداع في العالم الإسلامي كله) تهيأ لصلاة الجمعة ، واستحمَّ ، وغيَّر الملابس ، وتطيَّب (وكان في ذلك كله في غاية الاهتمام) فبدأ يتلو سورة الكهف قبل أن يقصد إلى المسجد إذ فاجأته نوبة قلبية ، توقف معها القلب وطارت الروح إلى بارئها ، وانضمَّ ـ رحمه الله ـ إلى صفوف أولئك الرجال من المؤمنين الذين أشاد الله بذكرهم في تنزيله ، فقال :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له مغفرة شاملة[1] .

* * *

---

(١) انظر كتاب « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » لصاحب المقال ، للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومآثره القيمة في مجال الأدب وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية وتعريف لأهمّ مؤلّفاته ، صدَر من « دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م » .

هذا الكتاب

بقلم العلامة المؤلف ـ رحمه الله ـ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ! فإن قصة هذا الكتاب ـ القديم في التأليف والتكوين ، والجديد في الطبع والصدور ـ وتاريخه ، يرجعان إلى عام (١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م) حين تعين مؤلف هذا الكتاب معلّماً في دار العلوم التابعة لندوة العلماء لمادتي تفسير القرآن الكريم والأدب العربي وتاريخه ، وأسندت إليه دروس في تفسير متن القرآن الكريم .

وكانت الخطوة الجديدة في عالم المدارس الدينية في الهند ، فقد جرت العادة فيها منذ القديم بالاكتفاء بتدريس كتب التفسير القديمة كـ « الجلالين » و « البيضاوي » و « الكشاف » .

وقد سبقت ندوة العلماء إلى تدريس متن القرآن الكريم ، كمادة مستقلة ، ومن غير ارتباط بكتاب خاص في التفسير ، حتى يستوعب الطالب دراسة القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، تحت إشراف معلِّم توفر على دراسة القرآن الكريم وتذوقه ، ثم يدرس كتب التفسير القديمة المقررة في المنهج الدراسي في تفصيل وتحقيق ، وقد كانت في ذلك فوائد ومزايا ، لا تحصل بربط القرآن الكريم بكتب التفسير ربطاً وثيقاً نهائياً ، لا يمكن تصور أحدهما إلا بالآخر ، والانطلاق من حدود

المنهج الرتيب إلى الجو القرآني الفسيح .

ولما باشر المؤلف تدريس أجزاء القرآن الكريم التي اختيرت له ، رأى أن الطلبة الشباب الدارسين لهذا الكتاب المعجز العظيم ، ليست عندهم ركيزة دراسية ورصيد مذخور لمعرفة مكانة هذا الكتاب المعجز الخالد ، وما اشتمل عليه من آيات ومعجزات ، وما انفرد به من آفاق وأعماق ، وما قام به من دَوْر في نشر الهداية والوصول إلى الحقيقة وربط المخلوق بالخالق ، وإخراج الجيل البشري من الظلمات إلى النور ، من السخافات والسفالات ، إلى قمة الإنسانية السامية القائمة على الرسالة السماوية والهداية الربانية ، ومكانته بين الصحف السماوية القديمة في ضوء الدراسة المقارنة ، وشهادات المؤرخين من غير المسلمين ، وما اشتمل عليه من نبوءات تبدو متحدية للعقل والقياس ، وتظهر كالشمس الساطعة من وسط الضباب والغبار .

وما هي الصفات والشروط التي تهيىء الطالب إذا استوفاها للانتفاع بالقرآن الكريم والاهتداء بهدايته ، والوصول إلى أعلى الدرجات من السعادة ، وما هي الحجب والحواجز التي تحول بين الطالبين والمخاطبين بالقرآن الكريم ، وبين الانتفاع به ، إلى غير ذلك من البحوث واللفتات، والمعاني والإيضاحات ، التي يستطيع بها الدارسون للقرآن الكريم ، أن يقبلوا على دراسته فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وشهود العلم والتاريخ والتحليل العلمي ، والدراسات المقارنة ، والعدول ، واقفون على كثب منهم ، يشهدون بصدق ما جاء فيه ، وبكونه منزلًا من الله ، لم تمسَّه يد التحريف والأهواء ، ولم تؤثر فيه الحوادث والتغيُّرات ، فيزدادوا إيماناً إلى إيمانهم .

بدأ المدرِّس الشاب ـ وهو لم يتجاوز العقد الثاني من عمره إلا قليلاً ـ يدرس المصادر العلمية الإسلامية والأجنبية ، ويستخرج منها معلومات جديدة مفيدة وشهادات ذات قيمة علمية تاريخية ، وجوانب منيرة مثيرة تفتح آفاقاً جديدة لفهم القرآن الكريم والاقتناع بإعجازه وسماويته ، فيكون منها بحوثاً يمليها على طلبة السنة السادسة في دار العلوم[1] في لغة البلاد العلمية والتعليمية ، التي كانت ولا تزال أداة التعليم في مدارس المسلمين في شبه القارة الهندية ، والمدارس الدينية بصفة خاصة وهي « أردو » يكتبها الطلبة بأقلامهم ، وتصبح مادة دراسية يمتحنون فيها .

وقد نُشِر كثير من هذه البحوث في مجلة « الندوة » التي كانت لسان حال ندوة العلماء ومجلتها العلمية الرسمية وبقي أكثرها بين دفتي دفاتر الذين تخرجوا من دار العلوم ، وغادروها ، ورجعوا إلى أوطانهم ومراكز اشتغالهم .

فلما بدا للمؤلف مؤخراً أن ينشر هذه البحوث في مجموعة تكون كالمدخل للدراسات القرآنية الكريمة حافزةً مثيرةً للتوسع في فهم هذا الكتاب السماوي الإلهي المعجز الخالد ، والتأمل فيه والانتفاع به ، وجد أنه لا يملك مجموعة يعتمد عليها في نشر هذا الكتاب ، وأن ما انتسخه الطلبة وقيدوه في دفاترهم قد ذهب معهم ولا أمل فيه ولا سبيل إليه ، فقطع الرجاء من الحصول عليه ونفض اليد منه .

وإذا به في يوم من الأيام يجد المجموعة التي كان يحتفظ بها لنفسه

---

(١) كان ذلك في سنة ٥٧ ـ ١٣٥٨هـ ، ٣٨ ـ ١٩٣٩م .

عند طالب عزيز[1] ، فكأنه وجد الضالة المنشودة ، ودرته المفقودة ، فتناول هذه المجموعة بالتنقيح والتهذيب ، وتعديلات وزيادات يسيرة ، وضم إليها بحثاً ، عنوانه : « القرآن الحميد والصحف السماوية القديمة في ميزان العلم والتاريخ » . أخذه من كتابه : « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم » وزاد بحثاً عنوانه : « نماذج من تدبر السلف وتلاوتهم للقرآن الكريم » والفصل الأخير هو : « بعض تجارب وملاحظات » .

وقد اشتمل الكتاب على مجموعة من معلومات جديدة وبحوث مبتكرة لم يطلع عليها المؤلف في كتاب آخر ـ والعلم عند الله وفوق كل ذي علم عليم ـ خصوصاً ما جاء تحت عنوان : إحدى نبوءات القرآن العظيم (نبوءة غلبة الروم) ، وقد حذف من مجموعة هذه الأمالي ما جاء في ملفاته الأخرى ككتاب : « الأركان الأربعة » و« النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم » أكثر تفصيلاً وفي شكل أوسع وأقوى .

وقد أسند المؤلف عمل نقل هذه المجموعة إلى اللغة العربية ـ لغة القرآن نفسه ـ إلى السيد « سليمان الحسيني الندوي » أستاذ دار العلوم ندوة العلوم ، وهو الذي تولى نقل عدة من كتب المؤلف إلى اللغة الفصحى ، وأحسن القيام بهذا العمل[2] ، واستحق إعجاب المؤلف

---

(١) هو الشيخ السيد محمد طاهر المنصور بوري ، مساعد مدير ندوة العلماء سابقاً .

(٢) كالجزء الثالث من رجال الفكر والدعوة الخاص بالإمام السرهندي ، والجزء الرابع منها الخاص بالإمام الدهلوي ، وجزءين من « مسيرة الحياة » للعلامة المؤلف .

ودعواته ، وشكر القراء بالعربية .

ها هو ذا المؤلف يقدم هذه المجموعة التي كانت باكورة مؤلفاته وبحوثه العلمية ، ومن آثار شبابه ـ وكل ما يمت إليه بصلة حبيب أثير ـ إلى الأوساط العلمية والتربوية المعنيَّة بدراسة القرآن الكريم ، وتفهُّمه ، وتعريف الشباب المتعلم الدارس به ، وحثهم على دراسته والتأمل فيه ، بهمة عالية ونفس توَّاقة ، ونظر بعيد ، عسى أن يحشر المؤلف ويدرج اسمه مع من أكرمهم الله وشرفهم بخدمة القرآن الكريم والتمهيد والتوطئة لفهمه ودراسته .

وعسى أن يكون هذا الكتاب من العوامل الحافزة المثيرة ، للإقبال على التعرف على هذا الكتاب العظيم من جديد ، والعناية به ، وحمد الله تبارك وتعالى وشكره على هذه الكرامة التي خص بها هذه الأمة .

﴿ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم : ٨] .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

٢٢ من ذي القعدة ١٤٠٥هـ

١٠ من أغسطس ١٩٨٥م



القرآن يتحدث عن نفسه

إن ما تحدث به القرآن عن نفسه وما وصف به ذاته ليضيء لنا شتى جنبات القرآن ، ومختلف مزاياه واعتباراته ، وتتجلى به جوانب كثيرة من جلال القرآن وعظمته وإعجازه ، كانت تخفى عن الأعين وتبقى وراء الستار فتتبدى للأنظار أجلى ما تكون .

إن جمع هذه الآيات المنثورة في المواضع المتفرقة من القرآن الكريم ، والتأمل وإنعام النظر فيها ، يفتح لنا باباً جديداً إلى معرفة القرآن وفهمه وإدراك محتواه ، فلنذكر ـ فيما يلي ـ آيات متعددة بهذا الصَّدد مع تعليقات موجزة ولمحات عابرة :

١ ـ القرآن قطعي غير مشكوك فيه إطلاقاً :

إن أكبر خصائص القرآن الكريم ومزاياه التي هي من دون معجزاته وآياته التي تفوق طوق البشر هو أنه علم قطعيٌّ يقينيٌّ جازم :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢] . ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ٣٧] ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ ـ ٤٢] .

إن هذه الخصيصة التي يتفرد بها القرآن ، لا يشاركه فيها ـ بطبيعة الحال ـ أي كلام بشري ، ولا يساميه أبداً أي كتاب صادر من إنسان ، إنه لم يكن ولن يكون ، ذلك لأنَّ مصدر هذا القرآن هو علم الله الذي يعلم الغيب والشهود ، ووسيلة صدوره ونزوله ، هو الوحي الإلهي

الذي لا يعترضه شيء من عوارض البشر .

إن هذا المصدر بريء من كل نقص واختلال ، أو شكٍّ والتباس ، أو ظنٍّ وتخمين ، أو تدرُّج وتطوُّر ، أو تعارض واختلاف ، وكل ما فيه قطعيٌّ يقينيٌّ ، مرئيٌّ منظورٌ ، ملتئمٌ جازمٌ حاسمٌ ، فليس في علم الله تدريجٌ ولا تطورٌ .

إن صفة علمه كصفاته الأخرى كلها أزليَّة أبديَّة :

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

إن علمه شامل محيط واسع :

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : ٩٨] ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن : ٢٨] .

لا يعتريه الخطأ ولا يعترضه النسيان :

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] إنه يعلم الغيوب والخفايا ولا يند عن علمه ذرة من ذرات الكون ، ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣] .

وكتاب الله ـ عز وجل ـ صادر عن علمه ، فهو آخذ من خصائص علمه ومزاياه وظل من ظلاله الفيحاء :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٤] ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٢] .

ولأجل أنه صادر من علم الله لا يوجد فيه تناقض ولا اختلاف

ولا تصادم ، فإنها من صفات الجهل ، أو طروء الزيادة في العلم والنقصان أو التدريج والتطوُّر أو الظن والقياس ، أو الغفلة والنسيان أو الكذب والاختلاف ، وهو بريء من كل ذلك ، منزه عن كل شائبة منه ، فلا جرم أن يكون كلامه الصادر منه بريئاً من كلٍّ تعارض ، محفوظاً عن كلِّ اختلافٍ :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وقد يكون المصدر الأساسي للعلم نقياً غير مشوبٍ ، ومصوناً غير مدخولٍ ، ولكن وسيلة وصوله وبلوغه إلى إنسان ما من الناس لا تعرى من الشك ولا تورث الطمأنينة واليقين .

قد يكون أن يصدر شيء من منبعه الصافي ، ولكنه في الطريق يتلقى الكدر ، والغش ، ولكن القرآن صرح نفسه بأنَّ وسيلة بلوغه ونزوله ليست إلَّا الوحي ـ الذي لا يدخله ضعف البشر ونسيانه وخلطه ـ فهو مصونٌ مأمونٌ ، لا يمكن أن يدخل فيه دخيلٌ ، أو يطرأ عليه طارئٌ .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[1] [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] ، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] ، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن

(١) تنص هذه الألفاظ « بلسان عربي مبين » على أن هذا الوحي نازل بألفاظه وعباراته ، إذ أنه لا يتصور اللسان بدون مفردات ومركبات ، فهو نازل بكلمات الله وعباراته .

﴿ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ ـ ٢١] .

أمّا علم البشر فإن مصدره ليس على طريق القطع واليقين مأموناً مصوناً بريئاً ، فإن أساسه ينبني أكثر الأحيان على القياس والظنِّ والتخمين ، كما أن وسائل علمه محدودة قاصرة ، وضعيفة كليلة ، تعجز عن أن تبلغ وسائل الأنبياء ومداركهم .

إن من أفضل وسائل الإنسان للعلم هي حواسه الخمس ، وما يختزنه الإنسان من معلومات عن طريق هذه الحواس يظنها بديهيَّة ، ويعتمد في الأمور العقلية أيضاً على معلومات حواسه هذه ثم إنه يكوّن من هذه المعلومات المكتسبة بهذه الحواسِّ مقدمات يرتب عليها نتائج لم تكن حاصلة له من قبل بمجرَّد هذه الحواسِّ الظاهرة ، ولكن الواقع أن هذه الحواس ليست مصيبة دائماً ، بل قد تخطىء وقد تصيب[1] ، كما أن العقل يتفاوت تفاوتاً عظيماً بين إنسان وإنسان ، وبين مدارج الرقيِّ والنضوج[2] ، ومهابط الصبا والطفولة .

---

(١) انظر لمعرفة حدود الحواس الخمس وقوتها وصلاحيتها وآراء الفلاسفة الغربيين فيها محاضرة سماحة العلامة المؤلف بعنوان « بين الدين والمدنية » في « محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي » في الجزء الأول ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

(٢) اقرأ لمعرفة حدود العقل ونطاق عمله محاضرة سماحة العلامة المؤلف في الكتاب المذكور ، وفي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » لسماحة العلامة المؤلف ، الجزء الثالث الخاص بالإمام السرهندي الباب الخامس ، =

ثم إن علم الإنسان ـ رغم كل ذلك ـ يبقى في دائرته المحدودة ونطاقه الضيِّق كذلك ناقصاً قاصراً ، لا يشمل حتى المحسوسات في وقت واحد ، وكم من عُقد وغوامض وأسرار في هذا العالم المادي المنظور ، لم يحلَّها العقل الإنسان بعد ، وما خاض فيه العقل منها ولجَّ بها ، فَحدِّث عن اضطرابه واختلاف أهله فيه ولا حرج .

زد إلى ذلك أن معلومات العقل البشري تتدرَّج وتتطوَّر . وتتطلَّع نحو المزيد ولا قرار له على شيء ، ولم يقرر لرقيه وتطوُّره حد ، فإذا تعيَّنت الحدود دلَّت على قصوره ونقصانه ، وإذا لم تتعين وبقيت عائمة دلَّت على تردُّده والتباسه وأنه لم يكمل بعد ، وكلا الأمرين لا يخلو من تشكيك فيه واتهام به بالنقص والقصور .

هذا والعالم المبحوث فيه عالم الماديات والحسيات التي يملك البشر بعض وسائله وطرق تحصيلها ، إن وراء هذا العالم المرئي المحسوس عوالم أوسع وأضخم من هذا العالم المادِّي بكثير ، وإنها لخارجة عن حدود إدراك البشر .

ثم إن الإنسان ـ رغم ما يدَّعيه من علم ـ يجهل حقيقة نفسه وكنه ذاته ، يجهل مبدأه ومصيره ويجهل منشأ هذا العالم المادي ومنتهاه ، وليس كل ذلك ـ وهو أقرب ما يمكن إليه وأمسُّ ما يكون به ـ إلَّا لغزاً من الألغاز لا تهتدي إليه العقول المجردة ، والحق أن العقل لا يعرف كيف يحل عقدة « العقل » .

ثم إن المعرفة التفصيلية لرضا الله تعالى وسخطه ، والعلم اليقيني

= طبع مصححاً ومنقحاً في دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩م .

بمحبوباته ومكروهاته ، والاطلاع على أوامره ونواهيه ، لا يتأتى كل ذلك ـ من دون أن يطَّلع هو ـ بمحض القياس والتخمين أو الظن والتقدير ، أو باستقامة الفطرة ، وسلامة القلب .

ومعلوم أن الإنسان لا يطلع دائماً على رغبة إنسان آخر ورضاه وأموره وأحكامه بمحض قياسه أو تقديره أو فراسته أو قوة ذكائه وإصابة فهمه ، فكيف بالاطلاع على رضا الله وسخطه ، وليس عند الإنسان شيء من مبادىء علمه .

كذلك فإن الإنسان سيتعرض لآلاف من الأخطاء والسقطات في التقنين وفي التكوين لأي نظام سياسي وخلقي ، وسوف تتعارض أنظمته وتتصادم قوانينه لفقده المصدر الحاسم الواحد ، ومن ثم تتصادم الشعوب والأمم وتتخاصم في الدستور والقوانين ، وتتصادم المصالح والرغبات ، والآراء والنزعات .

ويمر الدستور الإنساني والنظام البشري ـ لعدم قطعيَّته وحتميَّته وأبديَّته ـ بآلاف من التجارب ومراحل البلاء والامتحان ، وتستمرُّ سلسلة الأخذ والردِّ ، والموازنة والترجيح وتقوم آلاف من الحركات الثوريَّة ، للإصلاح وقلب النظام إثر النظام ، ويحرم الإنسان ـ في خضم هذه المشاكل وفي هذه السلسلة من الويلات ـ الطمأنينة والسكينة والأمن والرخاء .

وليس مصدر هذه الويلات والشرور إلا علم الإنسان الناقص الفج ، واعتماده عليه وثقته الزائدة به بغياً وعدواناً :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٣٦] ،

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم : ٢٨] .

٢ ـ القرآن محكم ومفصل :

إن القرآن الحكيم واضح كل الوضوح ، مُحكَم كل الإحكام مُبيَّن كلَّ البيان ، في أصول الدين وكلياته وأسسه ومبادئه وفي جميع الأمور التي تمسُّ إليها حاجة الإنسان في فلاح دنياه وسعادته فيها وفي نجاته وسعادته في الآخرة ، لا يحتمل القرآن في ذلك إبهاماً ولا غموضاً ، ولم يدع فيه تفصيلاً و تفسيراً إلا أودعه فيه[1] .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٢] ، ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ٣٧] ، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

---

(١) ينبغي أن يكون على بال القارىء أن القرآن كتاب هداية ونور ، وليس كتاب صناعات وفنون ، قد يأتي فيه إشارات إلى بعض الحقائق الكونية وكشوف لبعض الحقائق العلمية ، ولكنه يأتي عرضاً وضمناً لا أصلاً وأساساً ، وأما قوله : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وأمثاله من الآيات الكريمة التي تتضمن الإحاطة والشمول لكل شيء ، فالمراد به اللوح المحفوظ وعلم الله الأزلي الأبدي ، أما القرآن فإنه لم يتضمن ـ عدا الأصول والكليات ـ كثيراً من جزئيات الأحكام ، إذ أسند بيانها وتفسيرها إلى رسول الله ﷺ . ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

ولكن الإسلام لا يعطي ذلك التصوُّر الضيق للدين الذي تعطيه أكثر الديانات الأخرى ، ويعتقد به أكثر أصحابها ، إنه هنا يضع القاعدة الكلية للإنسان أنه عبد الله ، وأنه لا يخرج من هذه العبودية الأبدية في أي مجال من مجالات حياته ، وأن جميع أعماله ومهماته حتى القيادة والسلطان ـ الذي يبدو في ظاهر الأمر منافياً للعبوديَّة والاستسلام ـ ليس إلا مظهراً من مظاهر عبوديَّته المطلقة .

ولأجل هذا التصوُّر المحيط الكلِّي الشامل لا تنشأ في الإسلام قضية الفصل بين الدينِ والسياسة ، لقد أوتي هذا « العبد » من مولاه المطلق دستوراً شاملاً ، وقواعد كلية محكمة في صورة « قرآن مبين » تصير حياة العبودية الإنسانية في هداه ونوره على بصيرة وسعادة وفلاح ، ولا حاجة معه إلى ملحق سياسي يضاف إليه .

٣ ـ القرآن فرقان :

القرآن فارق بين الحق والباطل والخير والشر والنور والظلام ، وهي سمته المميِّزة التي أصبحت علامة عليه ، بل علَماً يطلق عليه ويعرف به .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

إن الفارق الأصيل والحاجز السميك الذي أقامه القرآن الكريم ، إلى أن تقوم الساعة ، بين الهداية والضلالة ، والإيمان والكفر ، والإسلام والجاهليَّة ، ورضا الله وغضبه ، وبين الظنِّ واليقين ، والحلال والحرام ، فرق مميَّز يعجز عن نظيره تاريخ الصحف السماوية والتعاليم الدينيَّة عبر العصور والأجيال ، فالفارق الذي أقامه بين

التوحيد والشرك ـ على سبيل المثال ـ وما استبعد فيه من أدنى الاحتمالات وأضعف الشبهات ، وأخفى المزالق ، إنه فارق يدلُّ على إعجازه وأنه من الله :

﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال : ٣٧] ، ﴿ لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

٤ ـ القرآن مصدر للكتب الإلهية السابقة ، ومهيمن عليها :

ينبغي عند هذه النقطة أن تلاحظ ثلاثة أمور :

١ ـ أن أصول الدين وكلياته الأساسية قدر مشترك بين جميع الكتب السماوية والديانات السماوية ، وقد صرح بذلك القرآن الكريم في عدة مواضع :

٢ ـ أن الصحف السماوية السابقة على القرآن المهيمن ، كانت مؤقَّتة بزمن محدود ، وبقيت إلى زمن محدود ، فلم تكن فيها صحيفة دائمة البقاء ، ولا مستمرة الحفظ والصيانة .

٣ ـ أن القرآن الكريم كتاب الله الأخير ، وهو الصحيفة الأبدية ، الشاملة لأصول الدين كلها ، ولن تزال مصونة محفوظة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وبعد تسليمنا بهذه الملاحظة الأساسية يتيسر لنا فهم الدعوى وإدراكها على حقيقتها : أنه مصدق لهذه الكتب ، وأنه ميزان لمعرفة

صحة تعاليمها الأساسية وثبوتها ، ومحك لاختبار مدى أصالتها وسلامتها ، فما وافق منها هذا الكتاب المصدِّق المهيمن فهو الصحيح المحفوظ ، وما خالفه منها أصولاً وكلياتٍ فهو المحرَّف المنحول .

والآيات التي صرَّح فيها بأن القرآن الكريم مصدِّق للصحف السماوية السابقة كثيرة ، وقد ذكرت في الآية التالية صفتاه المميزتان : (المصدق والمهيمن) :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

٥ـ القرآن يهدي إلى سبل السلام ويخرج الناس من الظلمات إلى النور :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ـ ١٦] .

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : ١ ـ ٢] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٩] .

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

إن القرآن الكريم يفتح للحياة الإنسانية بجميع شعبها وميادينها ، تلك السبل المستقيمة المستوية الواضحة ، التي تخلو من كل المطبَّات والنتوءات والمزالق والأخطار ، و لا تعبر عن هذه السبل أفضل وأجمع من سبل السلام إنها من تلك الكلمات المصطفاة التي لا تفسَّر بغيرها من الكلمات والألفاظ .

إن هذه السبل كلها مؤدية إلى ذلك « الصراط » الذي يدعو إليه الرسول ، وليست هي تلك السبل التي تفرِّق وتبدِّد ، ويدعو إليها الشيطان .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وهنا لا بد من لفتة ووقفة قصيرة عند التعبير القرآني المحكم البليغ الذي يذكر « النور » دائماً مفرداً واحداً ويذكر الظلمة « الظلمات » جمعاً وتكثيراً ، لأنه متى فقد الإنسان نور الوحي ـ الذي لا يتعدد أصله ـ تعددت عليه الظلمات وتنوعت وتداعت من كل صوب وحدب حتى لا يحصى لها عدداً ، ويواجه على كل شعب من شعاب الحياة وكل درب من دروبها ، ظلاماً فوق ظلام .

ولو وضعنا « نور الدين القيم » في جانب ونحيناه عن حياتنا ، فهل يبقى في هذه الدنيا الواسعة إلا ظلمات متراكمة ، وحجب من الظلام كثيفة ؟ وهل يبقى غير التيه والضلال في طريق الوصول إلى الله ؟ ، وغير الطقوس والتقاليد في الديانات ؟ وغير الحمق والجهل والخرافة في الاعتقادات ؟ ، وغير الأوهام والأحلام في التصورات ؟ وغير القياس والرأي والظن والتخمين في العلوم والصناعات ؟ وغير الجور والعسف

في الاجتماع والمعاملات ؟ وغير التجارب والاختبارات في القانون والسياسات ؟ وغير البغي والسطو والطغيان في الدول والحكومات ، هل يبقى غير ذلك ؟ كلا . إنها :

﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾ [النور : ٤٠] .

إنه ليس في ظلمات هذه الحياة الكثيفة الحالكة منارة نور ؛ إلا « نور الله » الذي أضاء به السموات والأرض .

﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [النور : ٣٥] .

لقد كان تعبير القرآن لأجل ذلك عن النور بالفرد[١] .

وعن الظلمات بالجمع ، فمن لم يحظ بهذا النور فلا نور له :

﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

إن الذين يخرجون في ضوء مشاعل الأنبياء ومنارات المرسلين من ظلمات هذه الدنيا ومتاهات الضلالة والعمى إلى نور النهار ووضح الهدى ، يحيون حياة جديدة وما حياة الأعمى إلا شقاء وضلال ، إنهم يعودون أصحاب بصر ، ويحسون بأنفسهم وقد تفتحت لهم العيون ، وحدت الأبصار ، فتتجلى لهم طرق هذه الحياة ودروبها كما تستنير بهم الآخرة ، ويرون سبل السلام ، والصراط المستقيم في وضوح وجلاء ،

---

(١) والنور ليست من الكلمات التي لا تجمع ، فهو يجمع على أنوار ، كما توجد هناك ألفاظ أخرى بمعناه ، ولا يصح القول بأن جمعه غير بليغ ، فماذا يبقى بعد استعمال القرآن إياه من شك في بلاغته ؟ ولكن القرآن يهدف بإفراد النور وجمع الظلمات إلى حقيقة أخرى مهمة ، ويلفت إليها الانتباه ، لعلهم يتفكرون .

يمشون في رحلة الحياة الطويلة المعقَّدة بخطاهم الثابتة في نور الله ، ولا يقعون في أي مزلق أو مزلّة ما داموا متشبثين بنور الله وهداه .

ولا أجمل ولا أروع في تصوير الفرق الهائل بين الحالتين : حالة العمى وحالة البصيرة من تعبير القرآن الكريم :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وقد وعد الله ـ سبحانه ـ بهذا النور على اتباع القرآن ، وعلى تقوى الله والإيمان برسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

وإن كلمة « تمشون به » وكلمة « يمشي به في الناس » لتشيران إشارة واضحة إلى أن هذا النور ليس خاصاً بالآخرة ، بل إنما هو نور البصيرة ، والفرقان المبين اللذين يمشي بهما الناس في حياتهم الدنيوية وجميع شؤونهم فيها ، إنهم يقومون بجميع أعمالهم وشؤونهم في ضوء الوحي الإلهي والهداية النبوية ، والفرقان المنزل عليهم من عند الله ، وأن سيرتهم في الحياة تتميَّز تميُّزاً واضحاً عن سير جميع الشعوب الكافرة ، ومناهجهم في الحياة ، وليست لهم هذه الميِّزة النيِّرة إلا لقيام منهجهم مبدئياً على الوحي والرسالة لا على الآراء والظنون ، وقد أشير إلى هذه الصلاحية المميزة الحاسمة في آية آخرى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

لأجل ذلك وصف الله سبحانه وتعالى هذا القرآن بـ « النور »

و « البصائر » و « الهدى » و « البيِّنة » و « الموعظة » و « الشفاء » و « الذكر المبارك » . . إلخ .

٦ ـ القرآن الكريم هو تلك المرآة الوضيئة ، التي يرى فيها الناس ذوو العقائد المختلفة والتصورات المتنوعة وأصحاب الأخلاق والأعمال المتباينة ، وجوههم وملامحهم ، وسماتهم فإنهم ذكروا فيها إما تصريحاً أو إيماءً ، أو تلويحاً بقصص الماضين وسيرهم الغابرة ، أو مباشرة وقصداً لأعيانهم .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ[1] ﴾ ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

لقد ذكر الإمام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي البغدادي (٢٠٢ ـ ٢٩٤هـ) ـ وهو المحدث الجليل المعروف ومن تلامذة الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (م٢٤١هـ) ـ في كتابه : « قيام الليل »[2] . قصة مثيرة مؤثرة تدلُّ على فهم السلف للقرآن الكريم وتدبُّرهم فيه . وتُعين على تفسير هذه الآية وإدراك بعض معانيها .

عن الأحنف بن قيس أنه كان جالساً يوماً فعرضت له هذه الآية : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ،

---

(١) فسرت كلمة « الذكر » هنا بمعنيين : بمعنى « الشرف » كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وبمعنى القصة وبيان الحال كما روي عن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) طبع هذا الكتاب باسم « قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر » بمصر وبملتان . وهو في الأصل مجموعة لثلاث من رسائله ، وقد لخصها العلامة أحمد بن علي (م٨٤٥هـ) .

فانتبه فقال عليّ بالمصحف لألتمس ذكري اليوم حتى أعلم مع من أنا ومن أشبه ، فنشر المصحف فمرَّ بقوم :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٧ ـ ١٩] . ومرَّ بقوم :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] .

ومرَّ بقوم : ﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٤] .

ومرَّ بقوم : ﴿ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ومرَّ بقوم : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

ومرَّ بقوم :

﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الشورى : ٣٧ ـ ٣٨] .

قال : فوقف . ثم قال : اللهم إني لست أعرف نفسي هاهنا ، ثم أخذ في السبيل الآخر ، فمرَّ بقوم :

﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : ٣٥ ـ ٣٦] .

ومرَّ بقوم :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٥] .

ومرَّ بقوم يقال لهم :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٢ ـ ٤٧] .

قال : فوقف ، ثم قال : اللهم أبرأ إليك من هؤلاء ، قال : فما زال يقلب الورق ويلتمس حتى وقع على هذه الآية :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٢] .

فقال : اللهم هؤلاء .

٧ ـ القرآن يتناول ذكر تلك الأمم والشعوب : ويختارها للعرض والقصص التي لا تنقطع أوضاعها وأعمالها ، ولا تنتهي صورها وأخلاقها ، بل تتكرر على مدار التاريخ ، كما أنه ما تعرض لتلك الجرائم والذنوب التي لا تكون إلا نادرة ، شاذة ، يخترعها الإنسان في فترة من الفترات بذكائه وحنكته الإجرامية ، إنه تعرض لجرائم تتكرر في الشعوب والأفراد ، وذنوب تشيع بين الناس .

في ضوء ما أسلفنا من الحقائق الواضحة وغيرها مما لم نتعرض له ، يتجلى القرآن الكريم كتاباً حيّاً غضّاً دائم النضارة والبقاء ، لا تبلى جدته ، ولا يؤثر عليه الماضي والحال ، والقديم والجديد ، إنه فوق التطوُّرات وفوق الأحداث ، وإنه ليخاطب كلَّ فترة من فترات التاريخ ، وكلَّ مدنية من مدنيات الأرض ، وإن دعوته حية طرية ورسالته غضة نضرة ، إنه صورة البشر الناطقة ، ومرآة الفطرة الإنسانية الوضيئة

الصافية ، ولقد قال عنه منزله بحق .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾
[الزمر : ٢٧] .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ ﴾ [النور : ٣٤] ،
﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن
تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
[يوسف : ١١١] .

* * *

الإعجاز القرآني

لقد ادعى القرآن الكريم أنه معجزة وتحدى كل البشر الذين تتلجلج نفوسهم في الإيمان به ، والاعتراف بأنه كتاب الله ، اقرأ هذه الآيات التالية :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٣ ـ ١٤] .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٤٩ ـ ٥٠] .

مجالات الإعجاز القرآني :

لقد تحدَّى القرآن الكريم في هذه الآيات التي سقناها جموع

المشركين والمرتابين المترددين في أمره ، بأن يأتوا بمثله ، ولا يمكن أن يكون أيُّ كلام مماثلاً للقرآن الكريم إلَّا إذا كان مثله في جميع مجالات إعجازه وجميع مميزاته وخصائصه .

ومعلوم أن القرآن ليس معجزاً في ألفاظه وتراكيبه وفصاحته اللغوية وبلاغته المعنوية فحسب ، بل إنه معجز في ألفاظه ومفرداته ومركباته ، معجز في معانيه ، ومحتوياته ، معجز في علومه ومعارفه ، معجز في غيبياته وحقائقه الأبديَّة، معجز في تعليماته الدينية والخلقية والاجتماعية والمدنية ، معجز في تأثيره وإثارته ، ومعجز في نبوءاته وأخباره ، فإذا ظهر العجز عن الإتيان بمثله في ألفاظه وتراكيبه فحسب فكيف يا ترى بمماثلته في جميع وجوه إعجازه ؟ .

وتطلعنا الآية رقم : [١٤] من سورة هود أن الخصيصة المميزة للقرآن وسر إعجازه المكنون يرجع إلى أنه : ﴿ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ فهو مَظْهر من مظاهر علم الله ، وعكس من عكوسه ، فكيف يجاريه الإنسان بعلمه الناقص الظني ، القاصر المحدود الموهوب له كرضخة من رضخات الفيض الإلهي من لدن حكيم عليم ، فإذا كان هو لا يماثل ربه في أسمائه وصفاته ، فكيف يماثله في علمه ، وهو من أخص خصائصه وصفاته :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٤] .

﴿ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ هي تلك النقطة المركزية التي تدل على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ متوحِّد في صفة علمه كما هو متوحِّد في جميع صفات الألوهية ، لا ندَّ له ولا نظير ، ولا شبيه ولا مثيل ، فكيف إذاً وأنى

يؤتى بمثل الكتاب ؟!

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٢] .

ومعلوم أن « علم الله » لا ينحصر في الألفاظ والتراكيب الظاهرة ، بل إنه أمسُّ بمعانيه وحقائقه ومحتوياته ، وقد وصف القرآن الكريم نفسه بـ (قرآناً عربياً) و (لسان عربي مبين) و (كتاب مبين) وأمثاله من الأوصاف في متفرق آياته ، مما تشير إلى فصاحته اللغوية ، وروعته البيانية ونصاعته الأدبية .

﴿ الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ١ ـ ٢] .

﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] .

وطالبهم القرآن الكريم في الآية رقم : [٤٩] من سورة القصص بأن يأتوا بكتاب أفضل من هذا الكتاب هداية وإصلاحاً وعلاجاً للقلوب :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص : ٤٩] .

فالإعجاز القرآني إذاً ليس منحصراً في فصاحته اللغوية ، وبلاغته المعنوية وألفاظه المختارة وتراكيبه المنتقاة فحسب ، إنما هو جانب من جوانب إعجازه الكثيرة .

وإن علماءنا البلاغيين المتقدمين كلما تأملوا في إعجاز القرآن أو

أَلَّفوا فيه غلب عليهم ـ لميول العصر ولتذوق العرب البياني وأهمية اللسان ودوره ـ هذا الجانب الخاص من إعجاز القرآن ، ولا غرو فقد أثبتوا فيه من دقة النظر وحسن الملاحظات وجمال الذوق ما ينتفع به دائماً . وأودعوا فيه عصارة ذكائهم وخلاصة فكرهم وتأملاتهم وقدموا لنا ثروة ضخمة في هذا الموضوع ، ليس من السهل الزيادة فيها ، وينبغي في هذا الموضوع أن يرجع إلى مؤلفاتهم ويستفاد منها[١] .

أكبر مجالات الإعجاز القرآني وأولها ، الإسلام :

لقد قدم القرآن الكريم أمام العالم صحيفة هداية أخيرة خالدة للدين والعقائد لم تسبق بصحيفة أكثر منها إحكاماً وإتقاناً وتفصيلاً على وجه الأرض ، وقد كانت الديانات السابقة ـ لرسالتها المحدودة بعصورها القاصرة على شعوبها ـ وصحفها التي حملتها لم تبلغ نضجها وكمالها بالنسبة إلى هذه الصحيفة . الأخيرة .

ولما أنها صحيفة ربانية سماوية وقد نزلت إلى الأرض ، فلم يبق

---

(١) يُرجَع لذلك عند الحاجة إلى التفصيل إلى كتاب « إعجاز القرآن » للعلامة أبي بكر الباقلاني . و « إعجاز القرآن » لابن العربي ، وللاختصار كتاب « النكت في إعجاز القرآن » للرماني ، وكتب البلاغة والبيان الرائدة ، ومن الكتب القديمة فيها كتابا « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » للإمام عبد القاهر الجرجاني ، ومن كتب المتأخرين « كتاب الطراز » للأمير يحيى اليماني ، ويراجع من كتب التفسير « تفسير الكشاف » للعلامة جار الله الزمخشري ، ومن كتب النحو والمعاني والبيان كتاب « الفوائد المشوقة للقرآن » للحافظ ابن القيم ، وكتاب « النبأ العظيم » للعلامة محمد عبد الله دراز ، وهو من العلماء المعاصرين ولكن كتابه يستحق الدراسة والاستفادة.

سواها كتاب هداية وصحيفة إرشاد في الوجود ولا يمكن أن يتصوَّر الإنسان صحيفة هدى ونور أكثر من هذه الصحيفة ربطاً للمخلوقين بالخالق ، وأعظم تزكيةً للنفوس ، وصقلاً للقلوب ، وأرفع بالناس عن تخفض الضلالات والانحرافات التي وقعت فيها الشعوب ، ومنيت بها الأمم .

كما أنها وهبت للحياة الإنسانية دستوراً مدنياً وخلقياً يضمن أفضل النتائج الخلقية والاجتماعية ، وقد حققها فعلاً ومارسها ممارسة تطبيقية ، كما أنها تحل بطريقته المعجزة ولمحاته المنيرة ، وإشاراته اللطيفة جميع قضايا الاجتماع وعقده ومشاكله التي تعرضت لها الإنسانية أو يمكن أن تتعرض لها في المستقبل إلى أن تقوم الساعة .

إنها تعطي تلك الكليات والتصورات الأساسية التي يمكن أن يقوم عليها أي مجتمع أفضل في أي دور من أدوار التاريخ ، وتنظم الحياة الإنسانية في كل بقعة من بقاع الأرض من جديد .

إنها صحيفة إلهية ، ولذلك فهي بريئة من الغلطات الإنسانية والسقطات البشرية ، وقصور التقنين البشري ، واختلاف القياسات البشرية ، إنها الصحيفة الأخيرة ، ولذلك فهي غنيَّة عن كلِّ زيادةٍ وإلحاقٍ وتكميلٍ ، إنها صحيفة عالمية شاملة ، ولذلك فهي فوق الحدود والحواجز العرفية ، إنها الصحيفة الدائمة ولذلك فهي محفوظة من كل نسخ وتغيير وتبديل ، إنها الصحيفة الكاملة ولذلك فهي في غير حاجة إلى ملحق وتتمة أو استدراك .

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

إنَّ هذا القرآن إذا تمَّ تنفيذه وتطبيقه عملياً لا يتعرض المجتمع لتلك المباحث المعقدة والمسائل الطريفة التي شغلت عقول المفكِّرين ورجال الاجتماع البارعين آلافاً من السنين ، والتي لم تُعرض حلولها الأخيرة الحاسمة بعد .

وكم من قضايا ومشاكل اقتصادية وسياسية لا يعرفها الإسلام ولا تنشأ في مجتمعه إطلاقاً ، وكم من حلول علميَّة وفكريَّة وصل إليها العقل البشري بعد تجارب آلاف من السنين ، كشف عنها النبي الأمي بكتاب ربه قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، إن هذا الدستور وهذه الصحيفة المرشدة الهادية ، وهو الإسلام ، ليس إلا صنع العليم الحكيم ، ونموذجاً كريماً عالياً من نماذج حكمته وعلمه وتقديره .

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] .

ولما كانت قواعد الإسلام وأصوله وكلياته مقتبسة من القرآن الكريم ، صادرة منه ، والقرآن هو الذي تقدَّم بها أمام الناس وعرضها عليهم ، فهي من إعجازه بل من أكبر معجزاته :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

إن بيان هذا الإعجاز القرآني ، والكشف عن وجوهه ومناحيه يقتضي بيان الإسلام بجميع شُعَبه وأركانه الذي لا تسعه مكتبة ضخمة ، وسوف يرد شيء منها في مواضعه ، فتركيبه المعجز في باب العقائد والتصورات ، وتكميلها المعجز ، وشموله المعجز في الأخلاق والاجتماع ، وإحاطته المعجزة ، كل ذلك يدعو إلى التأمُّل الدقيق ، ولا يسع أيَّ إنسان من البشر أن يحصي هذه الأسرار

والحقائق ، ويستوعب جوانب الحسن والجمال والإتقان والإحكام .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

٢ ـ المعجزة الثانية للقرآن علومه ومعارفه :

إن المعجزة الثانية للقرآن الحكيم هي تلك العلوم والمعارف الواسعة الشاملة والحقائق والأسرار الدقيقة اللطيفة التي تنبثُ في هذا الكتاب ، والتي تستحق كل واحدة منها أن تعد معجزة برأسها ، وكلما تطور علم الإنسان ، وبلغ مراحل النضج والاكتمال ، وانكشفت عنه حجب الجهل والغموض ، تجلَّى له جمال القرآن ، وروعته وإحاطته .

ولكن الذكاء البشري محدود النطاق ، ضيِّق الأفق ، لا يسع ضخامة محتويات القرآن ورحابة آفاقه المترامية ويكفيه أن يدرك منه قدر ما يملأ به وعاءه .

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [الرعد : ١٧] .

وإن هذه الوحدات المعجزة تحمل في طياتها جوانب عديدة من الإعجاز ، جانب الحتمية والقطعية والأبدية في الحقائق القرآنية ، وهذه الحتمية والأبدية ، من خصائص العلم الإلهي ، وليس الشك والتطور والاضطراب إلا من لوازم العلم البشري وخصائصه ، ولما أن القرآن الكريم محفوظ من لدن حكيم عليم ، لذلك لا يتطرق إلى

أبديته وحتميته شيء .

خلط العلم البشري بالعلم الإلهي في الصحف الدينية القديمة :

إن صحف الديانات والكتب المقدسة فيها عندما تتعرض لسطو البشر وعبثهم وتحريفهم ، فإنها تدخل فيها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ـ ما دام الله لم يتكفَّل بصحتها وحفظها ـ وتغزوها نظريات إنسانيَّة ومعارف بشريَّة ، وما دام العلم البشري غير معصوم وغير حاسم رغم قصوره ونقصه فإن هذه الصحف ـ نتيجة تدخُّل هذا العلم البشريِّ الناقص المحدود ـ تفقد قوة استنادها وقطعيَّتها وأبديَّة حقائقها وكلِّياتها .

والقرآن المحكم قطعيٌّ من ألفه إلى يائه ، لم تدخله آراء البشر ولا نظرياتهم ، ولم تكد تمسه تحقيقاتهم وتجاربهم ، ومهما ازدهرت العلوم والمعارف وبلغت من الرقي ما بلغت ، ومهما تطورت النظريات البشرية ، ومهما يثبت العلم أن الأرض هي محور الكون أو الشمس ؟ وأنها مسطحة أو كروية ، وأن الكواكب معمورة أو لا ، وأن العوالم متعدِّدة أو أنه ليس هناك إلَّا عالم واحد ، مهما يكن من ذلك أو غير ذلك فإن الحقائق القرآنية لا تتأثَّر ولا تنفعل ، إنها ليست النظام « البطليموسي » الذي يتقوَّض من أساسه بالنظام « الكوبرنيكي » .

هذا هو القرآن ، أما صحف العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والإنجيل) فإنها لم تأمن غوائل التحريف وسطو الآراء البشرية ، إنها قد غزتها النظريات والآراء التي راجت ونالت القبول في الجمهور في عصور الظلام في أوربا ـ وكلها عصور ظلام ـ إنها تصرِّح بأن عمر هذه الكرة الأرضيَّة ستة آلاف سنة ، وأن الأرض مسطَّحة مستوية ، وأن

الشمس والقمر والنجوم تدور حول الأرض ، وأن الأرض محور الكون وأن غيرها من الأجرام الفلكيَّة والكواكب السيارة كلها تابعة لها ، تخضع لسلطانها ، وأن العمران على الصفحة الثانية من الأرض مستحيل ، وذلك كما يقول « أغسطين » : « لأنه لم يذكر أحد من أولاد آدم ـ عليه السلام ـ من هذا النوع الذي يعيش في الجهة الثانية من الأرض ، كما أن الدليل الأكبر على امتناع أن تكون الأرض كروية الشكل هو أن الناس كيف يرون ربهم يوم الحشر ـ لو كان الأمر كذلك ـ ينزل عليهم من السماء ؟! » .

إن هذا التاريخ والعلم « الملهم » يمكن أن يكون في عصر المؤلفين والشارحين للكتب المقدسة هذه ، علماً مطابقاً لتحقيقاتهم وكشوفهم المقررة المعروفة ولكنها لم تكن لازمة الثبوت والصحة ، لقد كانت هي مرحلة من مراحل العلم البشري ، والإنسان لم يزل ولا يزال يقطع أشواطه في العلم ولا تنقطع عصا التسيار ولا يلقى بها .

إنه كلما يتقدَّم يخلِّف وراءه تلك المرحلة التي يراها هي المنزل حتى جاء حين من الدهر أصبح فيه العلم لا يمشي مع الدين ، فكان صدام بين العلم والدين ، وقد كان هذا الصدام بينهما مرحلة أولى حاسمة في سقوط الدين وهزيمته في أوربا .

إن الإسلام في تاريخه الطويل لم يمر ـ ولا تحلة للقسم ـ بهذا الصدام النكد للحظة واحدة ، ولن يمر .

يمكن أن تتصادم المعلومات البشرية والمعارف البشرية ، وقد تصادمت ، وسيكون منها حق ومنها باطل ، ويمكن أن تكون كلها

باطلة لا أساس لها من الواقعية والصحة ، ولكن من المستحيل واقعاً وأساساً أن تتصادم الحقائق والتصريحات القرآنية ، والعلوم والمعارف التي احتوى عليها هذا الكتاب ، إن كل علم يصادم القرآن ليس علماً ، إنما هو خرافة ، ووهم وحلم .

العلم الجديد والكشوف الجديدة تصدق القرآن :

إن البحث في القرآن الكريم عن حقائق العلم الحديث أو كشوفه الحديثة والتطبيق بين بعض إشاراته الإجمالية وبين الكشوف الجديدة والتحقيقات الجاهزة ـ الذي قام به على النطاق الواسع في هذا القرآن العلامة الطنطاوي الجوهري المصري في تفسيره « جواهر القرآن » ويسعى له باحثون في تحقيقاتهم العلمية ـ جهد شائك ، ودقيق خطير ، لأنه من الممكن جداً ـ وقد أيَّدت التجارب ذلك مرات وكرات في تاريخ العلم والبحث ـ أن تتغيَّر نتائج هذه البحوث والمعارف التي يراها الناس اليوم من أجلى البديهيات وأظهر الحقائق رأساً على عقب أو تصبح موضع شكٍّ وترددٍ ، وتفقد بداهتها وقطعيَّتها .

ثم إن الجهد العلمي ـ الذي لا ينكر إخلاص القائمين عليه ، وجديته وإفادته في بعض الأحيان ـ يبعد بالقرآن الكريم عن موضوعه الرئيسي وغايته الأساسية ، وتشم منه رائحة الخضوع للعلم الجديد والابتهار بالكشوف العلمية الحديثة .

وقد أخطأ بعض المفسرين المتقدمين هذا الخطأ نفسه فيما يتعلق بالفلسفة القديمة والروايات التاريخية المشهورة ، ولكن لما أن نصيب ذلك من تفاسير القرآن الكريم وثروتها الضخمة كان ضئيلاً قليلاً ، ولم

يجد قبولًا ولا رواجاً في أوساط المسلمين العلمية ، لذلك لم يتعرض القرآن لمثل تلك المحنة التي تعرضت لها كتب العهد القديم بالزيادات والشروح والإلحاقات الفلكية والجغرافية والطبيعية والتي أسميت في العالم المسيحي في القرون الوسطى بالجغرافية المسيحية المقدسة (Christian Topography) .

ولكن الدارس المنصف من ذوي الفطرة السليمة ـ الذي لا يجمد جمود الجاهلين ولا يخضع لكشوف العلم خضوع المستسلمين المنبهرين ـ يدهش عندما يطلع على هذه الحقيقة العجيبة حقاً ، وهي أن هذا الكتاب رغم كونه قد نزل على رسول أمي قبل أربعة عشر قرناً من الزمن في البيئة العربية المحدودة المنعزلة عن دنيا العلم والمدنية ، احتوى على عدد من الحقائق التي تتعلق بالتاريخ والجغرافية والطبيعة والفلك والأجرام السماوية وعلم الحياة والطب ، وخلق الإنسان وتكوينه وتركيب أعضائه وغيرهما من كثير من المعارف والعلوم التي انكشفت عنها في القرون الأخيرة معلومات وحقائق ، وتغيرت أوضاع العلم البشري تغيُّراً جذرياً ، وليس فيه ما أثبت العلم الحديث ، وكشوفه ، خلافه ومنافاته للواقع ، بل قد وردت فيه حقائق ولفتات لم يكشف عنها العلم إلا قريباً ولم يبلغ إليه إلا بالأمس .

إن تفصيل هذا الإجمال لا يقتضي كتاباً واحداً بل سلسلة كتب ومؤلفات ، فنكتفي هنا بشهادة واحدة لباحثٍ فرنسيٍّ فاضل ، فقد صدر قريباً للأستاذ الفرنسي الباحث موريس بوكاي (Maurice Bucaille) في كتابه (The Bible) (The Quran and Sience) وترجمته العربية باسم « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » يقول فيها المؤلف الفاضل :

« ولقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية ، فلم أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا الحد ـ من الدعاوي الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ، ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك في نصٍّ كُتبَ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً »[1] .

ولقد وصل المؤلف بعد مباحث قيِّمة تستحق الدراسة حول خلق السموات والأرض ، وإيجاد هذا الكون ، والأجرام الفلكية ، وطبيعة الأجرام السماوية وتطوُّر العالم السماوي وغزو الفضاء ودورة الماء والبحر وتضاريس الأرض والجو الأرضي وعالم النباتات والحيوانات ، ونشأة الحياة والتناسل الإنساني ، وتربية الجنين ، والحوادث التاريخية الكبيرة (كطوفان نوح ، وتحديد زمن إقامة بني إسرائيل في مصر ، وخروج سيدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مصر ، وتحديد فرعون موسى ، وكيفية هلاكه وغير ذلك)[2] وبعد عقد موازنات بين القرآن الكريم وصحف العهد القديم في ضوء الكشوف الجديدة في عالم الطبيعة والفلك وعلم الحياة ، والطب والتاريخ وصل إلى هذه النقطة الحاسمة :

« إن مقارنة عدد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوي التوراة غير المقبولة علمياً

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، لموريس بوكاي‌ء (طبع دار المعارف ـ القاهرة) ص/ ١٤٤ .

(٢) انظر لهذه المباحث العلمية بتفصيل الكتاب المذكور من ص/ ١٥٧ ـ إلى ص/ ٢٧١ .

وبين مقولات القرآن التي تتواثق تماماً مع المعطيات الحديثة »[1] .

ويختتم المؤلف كتابه العلمي الجيِّد بهذه السطور التالية :
« ولا يستطيع الإنسان تصوُّر أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله ، وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدَّى أي تفسير وضعيٍّ ، عقيمة حقاً المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية »[2] .

وهكذا فإنه لا تأثير على القرآن الكريم للميول والنزعات البشرية المؤقتة من اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وإن هدايته وإنارته للطريق في هذه الأمور العلمية أيضاً أبدية حتمية قاطعة .

* * *

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : ص/ ٢٨٦ .
(٢) المرجع السابق .

إثبات الوثائق التاريخية العتيقة ، وتصديق الباحثين المسيحيين المعاصرين ، لما جاء في القرآن من : تبرئة المسيح ـ عليه السلام ـ من الصلب والقتل

من الآيات الباهرة ، والدلائل الجليّة القاهرة ، على صدق وتحقّق ما جاء في القرآن من قصص الأنبياء والأمم ، وعرض العقيدة الصحيحة ، والردّ على العقائد الباطلة ، تبرئة القرآن سيدنا عيسى ابن مريم من الصلب والقتل ، وكونه بريئاً من كل ما يدّعيه اليهود ويعتقده المسيحيون من ذلك .

إن من العقائد اليهودية والمسيحية الأساسية ، وكالقطعي البديهي المتفق عليه والمتوارث عندهم ، أن المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما صلب وفارق الحياة (عقوبة وانتقاماً عند اليهود ، وكفارة لأتباعه ، وتخليصاً لهم من العقوبة والمؤاخذة على الأعمال والذنوب عند المسيحيين) وذلك بعد ظهور بولس الراهب Saint Pall المتوفى سنة ٦٥م لأغراض خاضعة لميثالوجية رومية ، وسياسة استعمارية[١] ، والقرآن يردّ على ذلك وينفيه نفياً باتاً ، فيقول الله تعالى :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى

---

(١) ليراجع كتاب Islam or True Christionity لمؤلفه Eruset de Bunson .

ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء : ١٥٦ ـ ١٥٨] .

ولا يفهم ذلك إلا في ضوء الخلفيات التاريخية والظروف التي حدثت فيها هذه المحاولة ، وخلاص المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذا المخطَّط الدقيق الرهيب ، الذي وضعه اليهود ، معاداةً لدعوته ، وقضاءً على خطر انتشار ما يدعو إليه من الدين السماوي الصحيح ، والتعليمات الصالحة المصلحة ، والحكاية كما يلي :

عيل صبر اليهود وفاضت كأس عدائهم وعنادهم فأرادوا التخلص من سيدنا عيسى ، فرفعوا قضيته إلى الحاكم الرومي Pilates ، وقالوا : إنه رجل ثائر فوضوي مرق من ديننا ، واستهوى شبابنا ، ففتنوا به ، وفرّق أمرنا ، وسفه أحلامنا ، وشغل بالنا .

وأضافوا إلى ذلك ـ بدهائهم ومعرفتهم لنفسيَّة الحكومات والحكام ، وبما عندهم من حساسيَّة زائدة لما يصبح خطراً على الدولة ـ وهو خطر على الدولة ، لا يخضع لنظام ، ولا يتقيد بقانون ، ولا يعظم عظيماً ، ولا يقدّس قديماً ، وهو رجل ثوري إذا لم يكفّ شره فإنه يتفاقم ، ولا تُستصغر الشرارة مهما كانت تافهة .

وكان كلاماً مملوءاً بالمكر والدهاء ، مصبوغاً بالصبغة السياسية ، وكانوا يعرفون أن الجانب الديني لا يُثير الحكام ولا يهيجهم ، فقد كان من سياستهم أن لا يتدخلوا في الأمور اليهودية الدينية ، ولذلك خلطوا الكلام بالسياسة .

وكان من الصعب أن يتحقَّق الحكَّام الأجانب المشركون[١] حقيقة الأمر ، ويعرفوا أغراض اليهود ، وسبب عدائهم للمسيح ـ عليه السلام ـ وكانوا في شغل شاغل عن ذلك بالأمور الإدارية[٢] ، ولكن اشتد إلحاح اليهود وعلت أصواتهم بالمطالبة بحكم الإعدام ، وأمر المسيح ـ عليه السلام ـ وإجباره على حمل الصليب الذي يكون جاهزاً في المحكمة[٣] .

زد إلى ذلك كان يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، وكان اليهود لا يعملون شيئاً ـ ولا يزالون على ذلك ـ يوم السبت ، وكان يوم السبت عندهم يوم عمل عطلة وكفّ عن العمل ، فكانوا حريصين كل الحرص على أن يصدر الحكم قبل أن تغرب الشمس يوم الجمعة وإلا ستظل المشكلة كما هي ، وتفوت الفرصة .

زد إلى ذلك أن عيداً من أعياد اليهود المهمة وهو عيد الفسح Passever كان يلي ذلك اليوم ، ولا مساغ فيه لتحقيق مآربهم[٤] .

وقد ضاق الحاكم بالقضية ذرعاً ، وليست له فيها رغبة ولا لأمَّته فيها مصلحة ، بل هنالك مخافة لحدوث ما لا تحمد عاقبته من تفضيل

---

(١) كانت الحكومة حكومة الروم . وكانت سورية (الشام) التي فيها مولد المسيح وموطنه ، محكومة للروم غير التابعين لدين من الأديان السماوية ، وقد جاء في إنجيل لوقا أن قاضي المحكمة الذي كان اسمه Pilates كان شديد التردد والحيرة في إصدار حكم الإعدام على سيدنا المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ (إنجيل لوقا ، باب : ٢٢ ، الآيات ٢١ ـ ٢٥) .

(٢) كما هو شأن الحكومات في المستعمرات والبلاد المحكومة بالأجانب .

(٣) إنجيل لوقا ، باب : ٢٢ ، الآيات ٢١ ـ ٢٥ .

(٤) إنجيل متى ، باب : ٢٧ ، الآية : ٣١ .

طائفة على طائفة ، والقضاء على من لم تتحقق قضيته ، فامتنع برهة ، ولما اشتدَّ الضجيج (وكان اليهود قد احتشدوا لسماع الحكم ، يتظاهرون بالعداء للمسيح ـ عليه السلام ـ وكونه خطراً دينياً وسياسياً) والشمس قد مالت للغروب ، وعلت الأصوات والهتافات ، فأصدر الحاكم الحكم على المسيح ـ عليه السلام ـ بالقتل صلباً[1] .

وكان سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ لاغباً هازلًا ـ لمعاناته لعداء اليهود أو مجابهتهم ، وفوّض الحاكم الصليب ـ الذي كان خشباً ثقيلاً ـ وكان من الشرائع الرومية القضائية أن من يصدر عليه حكم الصلب ، يحمل الصَّليب إلى المشنق ، مهما كان بعيداً ، وكان لا يزال موجوداً في المحكمة ، فحمله ومشى سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ وتبعه اليهود وأطفالهم يعاكسونه ويهزؤون به ، فكان يمشي على بطء ، والحمل ثقيل والحامل هزيل ، وكان بعض التابعين اليهود من السابقين والمعاكسين ، منهم رجل اسمه شمعون وكان كرينيّاً ، فكلفه الشرطة حمل الصليب ، ليتخلصوا ويتخلص اليهود من قضية المحكوم عليه بالصلب ، ويتم كل ذلك قبل غروب الشمس[2] .

ولما وصل ذلك الحشد إلى المشنق ، هنالك اختلط الحابل بالنابل ، وكان من التقاليد المتبعة ، أن المصلوب يعرف بحمله الصليب ، فأخذ الموكل بهذه العقوبة وتنفيذ الأمر شمعون الكريني ، ورفعه على الخشبة ، وهو يصرخ ويهتف أنه ليس المحكوم عليه

---

(١) متى ، باب : ٢٧ ، الآية : ٣١ .

(٢) راجع إنجيل مرقس : ١٦ ـ ٣١ ، لوقا : ٢٣ ـ ٢٦ .

بالصلب والإعدام ، وإنما حمل الصليب ليصل الموكب ، والمحكوم عليه بالصلب في وقت قريب قبل غروب الشمس ، فلم يعره الموكل بهذا الأمر التفاتاً وأخذه وصلبه .

وأقبل الحشد ينظر إلى هذا التجمع ، والوجوه لأفراد ينتمون إلى جيل واحد وبلد واحد متشابهة ، خصوصاً للأجانب الرسميين ، والدنيا ليل وظلام ، فلم يروا سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ ولم يعرفوا مكانه وصنع الله به ما أراد ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[1] [النساء : ١٥٧] .

* * *

---

(١) جاء أكثر تفاصيل هذه القصة والحلقات والملابسات والأجواء التي أحاطت بها ، مستندة إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية ، التي أمكن العثور عليها ، في كتاب The Trail of Jesus (محاكمة المسيح ـ عليه السلام ـ) لمؤلفه Giovanni Rosadi (London Hutchi NSON& CO. 1905) (١٩٠٥) .
وكانت النتيجة المتوقعة أن يعترف المؤلف ببطلان عقيدة الصلب والفداء ، ولكن هنا في الأخير ، عملت الرواسب العقائدية والتربوية عملها ، فقفزت هذه العقيدة وطغت على الوثائق التاريخية والبحث العلمي والتاريخي (ص/٣١٨) .
وبالعكس جاء في دائرة المعارف البريطانية « أن شمعون كان هو المصلوب مكان المسيح ـ عليه السلام ـ » (الجزء الثالث من دائرة المعارف البريطانية : ص/١٧٦) الطبعة الرابعة عشرة (١٤) ، وكذلك جاء في دائرة معارف الأديان والأخلاق، الجزء الرابع : ص/ ٨٣٣ ، والحق يعلو ولا يعلى عليه .
وأول من انتبه لأهمية هذا البحث التاريخي وإثبات معجزة القرآن في ضوئه ، على ما نعلم ـ الباحث الكبير والأديب الجليل الشيخ عبد الماجد الدريابادي (م١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م) في تفسيره للقرآن بالإنجليزية والأردية ـ رحمه الله وغفر له ـ .

المعجزة الثانية للقرآن الكريم

أنباؤه الغيبية ونبوءاته الصادقة

إن ما ذكر في القرآن الكريم من قصص الأنبياء السابقين وقصص الأمم والشعوب التي أرسلوا إليها يعدُّ معجزة بمفردها ، وناحية الإعجاز فيها أنه لم يكن هناك من وسائل الاطلاع والمعرفة بها ، ولم يكن لهذه المعلومات والروايات التاريخية مصدرٌ ولا مرجع للرسول ﷺ إلا فيض العلم الإلهي ، والوحي الرباني .

ولقد كان الرسول ﷺ أمّياً ، ومعظم هذه القصص والوقائع ترد في السور المكّية حيث لم يكن بإجماع المؤرخين يهودي ولا مسيحي ، أما « ورقة بن نوفل » ـ الذي كان يقرأ الإنجيل ـ فقد توفي في السنة الأولى بعد البعثة المحمدية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ كما تصرِّح به الروايات الصحيحة .

ويذكر أن محمداً ﷺ اجتمع قبل الهجرة بشخصين مسيحيين أولهما « بحيرى الراهب » ، وثانيهما « العدَّاس » اجتمع بالأول منهما في مدينة (بصرى) من مدن الشام وبالثاني في (الطائف) من الحجاز ، ولكن اللقاء الأول لم يتجاوز بضع سويعات ، كما أن اللقاء الثاني لم يكن إلا لدقائق ، وكان عمره عند اجتماعه بالأول ثلاث عشرة سنة ، فكيف يجوز لمن له أدنى مسكة من العقل أن يتجرأ على القول بأنه في هذا

العمر الباكر ، وفي هذا اللقاء العابر (مع حاجز اللغة) استفاد منه تلك العلوم والمعارف الجمَّة التي شرحها وأفاض فيها مع الصحة الدقيقة والإتقان العجيب بما تعجز عنه حتى الصحف المقدَّسة نفسها .

وأما عدَّاس فإنه لم يكن عالماً ، وقد تأثر بالنبي الكريم ﷺ وأعجب به ، فكيف يقوم على هذا الأساس المنهار ـ رواية ودراية ـ بناء هذا القياس الغريب أن علومه ومعارفه ﷺ الغيبية التي ثبتت صحتها وقوتها ـ بعد كل التجارب والكشوف والتحقيقات ـ مقتبسة من أولئك الأغمار الذين لا يوثق بشخصيتهم ، ولا يعتمد عليهم في شيء ، والتي تزيد على أصلها أشياء وحقائق لم تكن منهم أبداً على بال .

إن السّراج الذي نفد زيته وانطفأ هل يرجى منه أن يشعل سراجاً آخر؟ إنه لم يكن عند هؤلاء المسيحيين المساكين الذين يتبجح بعض السفهاء من المستشرقين بتلمذة محمد ﷺ عليهم واستفادته منهم ، من العلم ما يعتبر علماً سليماً يوثق به ويرجع إليه .

واضح من ذلك ـ قطعاً ـ أنه لم تكن عند النبي الكريم ﷺ وسيلة للاطلاع على هذه الأخبار المغيَّبة ، وأنها ليست صادرة إلا من الوحي المأمون ، هذه هي الناحية البارزة من الإعجاز الذي أشار إليه القرآن مرة بعد مرة يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعد ذكر قصة ولادة مريم ويحيى ـ عليهما السلام ـ وبعد ما سبق قصة مريم ـ عليها السلام ـ بشيء من التفصيل .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

ويقول بعد قصة طوفان نوح ـ عليه السلام ـ :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ

فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] .

ويقول في تمهيد قصة يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

ثم يقول بعد عرض هذه القصة الشائقة المفصَّلة : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٢] .

ويصرح في هذه السورة نفسها بأن هذه القصص التي يسوقها ليست موضوعه الأساسي ، إنه يقصد بذلك العبرة ، وتصديق الكتب السابقة وتفصيلها وبيانها .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

ويرد في موضع على الكفار افتراءهم على الرسول الكريم ـ ﷺ ـ بأنه يسوق هذه الوقائع من مذكراته أو نسخته التي استنسخها من قديم ، وتقرأ عليه يومياً ثم يأتي فيحدث بها الناس ، ثم يذكر مصدره الصحيح القوي المأمون .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ ـ ٦] .

كما فند في هذه السورة نفسها فرية الكفار بأنه اختلقه بمساعدة

أناس من آخرين ومؤامرة كتاب بارعين :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان : ٤] .

ويبين القرآن الكريم في سورة القصص أن الرسول الكريم - ﷺ - لم يكن موجوداً وقت هذه الوقائع والحوادث ولم يكن عنده علم ولا وسيلة إليه ، إنما مصدر هذه الأخبار هو الوحي الذي أوحى ربه إليه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٤ ـ ٤٦] .

وقد ذكر في سورة العنكبوت عدم درايته لتلاوة الكتاب ، وأمِّيته ، وأنه بعيد عن بيئة العلم والكتاب ، لا يعرف أسباب العلم ووسائله وأدواته ، فهل يبقى بعد ذلك من ريب في مصدر علمه المعجز للمرتابين المبطلين .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

* * *

دراسة مقارنة بين القرآن الحكيم
والصحف السماوية السابقة

إن الناس الذين كانوا يعتقدون في عصر البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ والذين لا يزالون يعتقدون بعد ذلك العصر أو يتظاهرون باعتقاده أن علوم القرآن الكريم ومعارفه مقتبسة من صحف التوراة والأناجيل ، إنهم ليسوا إلا جاهلين بالتوراة والإنجيل أنفسهما ، إن القرآن والتوراة والإنجيل لا تزال توجد على وجه الأرض ، وصحف التوراة والإنجيل ـ حسب عقيدة اليهود والنصارى ـ محفوظة منقولة معتمدة ، وليس من العسير اليوم أن نوازن بين القرآن الكريم وبين هذه الصحف بل هو أيسر مما كان عليه أمس ، ونستطيع أن ننقد في ضوء هذه الموازنة دعوى حفظ هذه الصحف وصحتها نقداً علمياً .

تفيدنا دراسة تلك القصص للأنبياء والمرسلين التي وردت في القرآن والصحف السابقة أن أي قصة منها في أحدهما ليست مقتبسة من الآخر ، لاشك أن بعض أجزاء الحوادث أو جزئيات القصص تشترك وتتفق في كلا المصدرين مما يدل على أن مصدرهما الأصيل الحقيقي مصدر واحد ، وهو الوحي .

ولكن يتضح من الدراسة البصيرة فيها أنه إن حفظ شيء منها فقد ضيعت أشياء وفقدت حلقات ، ولم تحفظ من عبث الأيدي وتدخل البشر ، فتجد الفرق واضحاً جلياً في أساليب هذه الصحف ومراتب

أهمية المحتويات وخطورتها وأسسها فيها .

فالأسلوبان والمنهجان متفرقان كل الافتراق ، تتراءى في أحدهما ـ وهو أسلوب القرآن الحكيم ـ عظمة الكتاب الإلهي وجلاله وتأثيره ، وأبديته ، ويلمع منه نور الوحي وسناه ، وتفيد دراسته لأول وهلة أن موضوعه ليس موضوعاً تاريخياً ولا سرداً للأحداث والوقائع ، إنما موضوعه الهدى والعبرة والعظة .

إن تحديد السنين والإحصاءات وعدد الأشخاص وجميع تلك الجزئيات والتفصيلات التي تتصل بموضوع التاريخ وكتب الأنساب حذفت منه في جمال وتوازن وإتقان .

واختيرت من القصص تلك الحلقات الخاصة التي تبقى عبرة وموعظة على مر السنين ، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

هذه هي الروح الدعوية الإصلاحية والسمة الربانية التي تجدها سارية في جميع قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم ، إنها إحدى خصائص الكلام الإلهي ودليل إعجازه .

والرسول كذلك يحمل ظل هذه الخصيصة في كلامه ، فهو يعرض عن البحوث والتفاصيل التاريخية التي لا تجدي نفعاً في الدعوة ولا تأثير لها على أخلاق الناس وعقائدهم ، إنه يتعرض لتلك الأمور التي تتكفل بنجاة الناس وسعادتهم وهدايتهم ، لقد أراد فرعون أن يربك موسى في مبحث تاريخي لا طائل فيه ، ولكن موسى أغلق عليه باب المناقشة

والبحث بطريقة رائعة جميلة ، مع التمسك بدعوته وإظهار رسالته ، قال فرعون :

﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ٥١] .

وأجاب موسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] .

هذا في القرآن ، وبإزائه التوراة الموجودة ، تقرأ فيها كتاب « السلاطين » وكتاب « التواريخ » و« سفر التكوين » فتجد الصبغة البحتة ، من كثرة السنين ، وأعداد الأشخاص والقبائل ، والتفاصيل الطويلة عن العمارات والبنيان ، ولكن تؤنس في تضاعيف ذلك أحياناً قليلة شعاعاً من وحي ، ويشهد قلبك أن هذا من ترجمة كلام الله العليم الحكيم .



قصَّة سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ
في القرآن والتوراة

نختار ـ فيما يلي ـ قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ كمثال لشرح الفارق بين القرآن الكريم والتوراة ، وقد جاءت هي مُفصَّلة في كلا المصدرين .

لقد ذكرت في التوراة جزئيات كثيرة من القصة زائدة على القرآن الكريم ، ولكن أكثرها مما فيه تعيين لأسماء الأشخاص ، وتفصيل لروايات تاريخية ، فقد ذكرت في (الباب ـ٣) قصة ليهوده لا يقرؤها إنسان كريم إلا أطرق رأسه حياءً وخجلاً ، وليست هي مما تليق بأسرة النبي يعقوب ـ عليه السلام ـ كما ذكرت فيها أشياء لا تناسب مقام يوسف ولا تليق بنبوته (انظر : ب/ ٤٢) .

أما القرآن الكريم فقد ذكرت فيه بعض الجزئيات المهمة للأحداث خلت عنها التوراة وكان من المهمِّ للدعوة والرسالة أن تذكر :

١ ـ أن موعظة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ البليغة المؤثرة في تمهيده لتعبير رؤيا الرجلين الأسيرين[1] التي هي آية في الخطابة النبوية الحكيمة والدعوة المؤثرة والحكمة البليغة ، والتي يتجلى فيها جمال

---

(١) اقرأ الآيات : ٣٦ ـ ٤١ من سورة يوسف .

سيدنا يوسف المعنوي وبلاغته الرائعة ، حذفت أساساً من التوراة .

٢ ـ وأن القرآن يذكر أن عزيز مصر لما رأى ما يراه النائم وسمع تأويل يوسف له ، أحب لقاءه وأرسل إليه رسوله ليأتي به ، ولكن يوسف لم يستعجل ولم يتهور في الخروج من السجن ، بل رأى من اللازم أن يحقق الحادث الذي اتهم به وزج لسببه في السجن قبل أن يسرح عنه حتى تعرف عنه براءته وعفافه كما عرف عنه اتهامه ويشيع في الناس ، وأن لا يظن به قبول منة السلطان وأن إطلاق السراح عنه ، حسنة من السلطان إليه ، بل إنما هو نتيجة براءته وعفافه وطهره ، إن هذه الجزئيات المهمة التي تليق ـ بحق ـ بنبوة سيدنا يوسف وغيرته وعزَّة نفسه ، وذكائه وفراسته ، لم تذكر في التوراة رأساً .

والذي جاء في التوراة بهذا الصدد هو ما يلي :

([٣٨] ـ فأعجب فرعون وغلمانه جميعهم هذا الرأي . [٣٩] ـ وقال لهم فرعون هل نجد رجلاً مثل هذا فيه روح الله . وقال ليوسف أن قد أطلعك الله على هذا كله فليس حكيم ولا فهيم مثلك . [٤٠] ـ فأنت تكون على بيتي وشعبي بأسره يطيع ما يأمر به فوك غير . [٤١] ـ إنني أنا أعظم منك بالكرسي فقط .[٣٥][1] .

وإن القرآن يقول :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٥٠] .

ولما اعترفت تلك المرأة المتجنية عليه التي أدخل بسبب اتهامها في

---

(١) التوراة : سفر التكوين الإصحاح : ٤١ ، الآيات : ٣٨ ـ ٤١ .

السجن ببراءته وحصحص لها الحق ، باح يوسف بسبب تأخيره في تلبية دعوة الملك ومطالبته بهذا التحقيق الذي كان لا بد منه لإثبات عصمته وطهارة ذيله :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٢].

ثم برأ نفسه من الفخر والمباهاة وقال في إنابة نبوية وتواضع كريم :

﴿ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

إن هذا لَكَلام النبوة ساطعاً تتجلى فيه سيرة يوسف وطبيعته وسكينته، ولا يوجد لهذه القطعة المؤثرة الخطيرة في التوراة من عين ولا أثر .

٣ ـ أن حديث يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي نقلته التوراة ليست عليه تلك المسحة النبوية وذلك النور العلوي الذي يتلألأ في القرآن ، وازن بين سفر التكوين من التوراة ، وسورة يوسف من القرآن ، تجده في القرآن عبداً صالحاً متوكلاً على الله ، يرى في كل مكان وفي كل حادث يد الله تتصرف ، وقدرته تتجلى ولا ينسى الله أبداً في كل ما يتحدث به ، ويكبِّره ويعظِّمه ويرجوه ، أما في التوراة فتجده رجلاً حزيناً له أبناء وقد عركته التجارب وحنَّكته ، وانتهى ، كما أنك لا تجد في التوراة ذكراً لرجوع إخوة يوسف بعد حبسه أخاه « بنيامين » إلى أبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ وحديثه الشجي الحزين الذي يتجلى فيه توكله على الله واعتماده عليه ، كل ذلك محذوف ساقط منه[1] .

---

(١) انظر سفر التكوين فقرة : ٤٤ ـ ٤٥ .

٤ ـ يذكر القرآن الكريم أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما اجتمع في مصر بأبيه المهجور الكئيب وإخوته المخلّفين المساكين ، امتلأ قلبه حمداً لله وشكراً على آلائه ولمعت في زينات الملك وعز الجاه والسلطان أنوار النبوّة والصلاح الذي ورثه عن آبائه الميامين ، وأشرقت فيه العبودية الخالصة فظلّ يشكر الله ـ عزّ وجلّ ـ ويدعوه :

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

هذا المشهد المؤثّر الرائع ، والدعاء الخاشع المنيب تسكت عنهما التوراة وتمرُّ بهما مر الكرام[١] .

* * *

---

(١) انظر سفر التكوين ، ب/٤٧ .

سيرة الأنبياء كما تصوِّرها التوراة والقرآن

من الفوارق الأساسية الكبيرة بين القرآن وصحف العهد القديم أن القرآن يعرف سير الأنبياء طاهرة بريئة نزيهة تليق بمنصبهم ومكانتهم ، بل إنه يدحض كلَّ الاتهامات والادعاءات الباطلة المزوَّرة التي نالت القبول في أعدائهم أو أتباعهم السفهاء الجاهلين .

أما صحف العهد القديم فإنها تشتمل على روايات ووقائع عن الأنبياء يتندى لها جبين الحياء ويحمر لها وجه الأدب ، إنهم اتهموا فيها تارة بالكفر وتارة بالفسق .

والعياذ بالله ، فقد اتهم نوح ـ عليه السلام ـ في سفر التكوين . الباب/ ٩ ، ولوط ـ عليه السلام ـ في سفر التكوين ، الباب/ ١٩ ، وهارون ـ عليه السلام ـ في كتاب الخروج ، الباب/ ٣٢ ، وسليمان ـ عليه السلام ـ في كتاب السلاطين ، الباب/ ١١ ، بالكفر والشرك ، والفسق والفجور ، تعالى الله عن ذلك وتنزهت رسله أنى يؤفكون .

هذا في العهد القديم ، أما القرآن فإنه يصف نوحاً بالرسول الأمين[١] ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ٧٩] .

ويقول عن النبي لوط ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ

(١) انظر سورة الشعراء ، الآيات : ٢ ـ ٦ .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٤ ـ ٧٥] .

والتهمة الصريحة بعبادة العجل التي ألصقت في التوراة بالنبي هارون ـ عليه السلام ـ تأتي فيها بهذا النص بعينه :

« فقال لهم هارون انزعوا أقرطة الذهب التي في آذانكم وأبنائكم وبناتكم وائتوني بها ، فنزع الشعب الأقرطة التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون ، فأخذها منهم وصيرها عجلاً سبيكاً ، وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل الذين أصعروك من أرض مصر ، فلما نظر هارون ذلك بنى مذبحاً أمامه ونادى وقال : غداً عيد للرب »[1] .

ولكن القرآن يفند هذه التهمة الكاذبة ، ويعلن بالعكس من ذلك دعوته إلى التوحيد الصريح :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ [طه : ٩٠] .

وتقول التوراة عن النبي سليمان ـ عليه السلام ـ : « فلما كان عند كبر سليمان ، أغوت نساؤه قلبه إلى آلهة أخرى ولم يكن قلبه سليماً لله ربه مثل قلب داود أبيه ، وتبع سليمان « عسترون » إله الصيد « ابنين » و « ملكوم » صنم بني عمون ، وارتكب سليمان القبح أمام الرب ولم يتم أن يتبع الرب مثل داود أبيه » .

ثم تضيف التوراة :

---

(١) سفر الخروج ، إصحاح : ٣٢ .

« فغضب الرب على سليمان حيث مال قلبه عن الرب إله إسرائيل الذي ظهر له مرتين ، ونهاه عن هذا الكلام أن لا يتبع آلهة الغرباء ولم يحفظ ما أمره به الرب »[1] .

ويقول القرآن الكريم في سورة ص عن إخلاصه وعبوديته ، وقربه ومنزلته عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] .

ثم يقول بعد سطور :

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص : ٤٠] .

كذلك فند القرآن الكريم تلك الاتهامات التي رمى بها اليهود سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ وأمه مريم العذراء البتول ـ عليها السلام ـ تفنيداً قوياً وصوَّر لنا المسيح رسولاً مباركاً وجيهاً كريماً :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥ ـ ٤٦] .

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٠ ـ ٣٣] .

هذا هو الفارق الأساسي بين هذه المحتويات والقصص المشتركة

---

(١) الكتاب المقدس سفر السلاطين ، الباب : ١١ ، الآيات من ٤ إلى ١١ (طبع British And Foreign Bible Society لاهور باكستان) .

في القرآن الكريم والصحف السابقة التي هي بأيدينا والتي يعتقد أصحابها أنها محفوظة غير محرفة .

أما المحتويات والتعليمات الخالدة التي ضمها القرآن الكريم بين دفتيه وانفرد بها عن الصحف القديمة فهي تشكل جانباً آخر عظيماً من إعجازه وجماله وشموله .

وبعد كل ما تقدم وما ذكرناه وما لم نذكره هل يكون الادعاء بأن القرآن الكريم اقتبس هذه المعلومات القديمة عن تلك الصحف إلا جهلاً بالقرآن الكريم في جانب ودليلاً واضحاً على جهل فاضح بهذه الصحف نفسها ، إن ما احتوى عليه القرآن مقتبس من علم الله ، بل هو فيض من علم الله ، وليس من وسيلة للاطلاع عليه ولا من مصدر يصدر منه به إلا وحي الله .

ولذلك فهو حق مطابق للواقع ، منزه بريء من كل ريب واختلاط وقياس ، إنه جاء ليفضح تحريفات الصحف السابقة ، وافتراءات اليهود واتهاماتهم ضد الأنبياء المعصومين ، وليصدق أصل ما أنزل إليهم من الله وليكون مهيمناً عليه ملاحظاً رقيباً .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

* * *

تنبيه القرآن الكريم
على تحريفات الصحف السابقة
والفروق الدقيقة بين عقائد الديانات السابقة
والفرق الدينية

إن من الإعجاز القرآني المدهش أنه تناول بيان الخلافات العقائدية والتصورية بين شتَّى الفرق والطوائف من اليهود والمسيحيين ، في صحة دقيقة وإتقان وضبط عجيبين وراعى الفروق والأشياء الدقيقة في عرض آرائهم وخلافاتهم الدينية ، وإن ما ذكر القرآن الكريم من فروق بين عقائدهم ووجوه خلافاتهم وافتراقاتهم تصدقه ـ حرفاً بحرف ـ الدراسة الواسعة العميقة لثروتهم الدينية .

وكلما يتسع العلم بدياناتهم وتتيسر وسائل وإمكانيات دراسة كتبهم ـ التي تنتشر الآن وتصدر بكثرة ـ دراسة عميقة يظهر للناس صدق بيانات القرآن ـ وهو الكتاب المحكم ـ ودقتها وتنكشف حقائق ومعلومات خطيرة ويتجلى لكل ذي عينين أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة واحدة في حقهم إلا وهي من الضرورة بمكان ، ولولاها لخفيت علينا معان ، وأن تنويعه للتعبير والبيان عندما يذكرهم ليس إلا لغرض مقصود كبير .

كذلك ما جاء في القرآن الكريم من تأكيد على شيء أو تفنيد لشيء حول الأشخاص أو الحوادث والوقائع فليس ذلك إلا لمواقف اليهود

والمسيحيين منهم : إيجابية مغالية أو سلبية منافية ، ودحضاً لاتهاماتهم وحطاً على رواياتهم ورداً على زيغهم وانحرافهم ، ونكتفي هنا بعرض ثلاثة أمثلة من ذلك :

١ ـ لقد نفى القرآن الكريم تهمة الكفر عن النبي سليمان ـ عليه السلام ـ وبرأ ساحته عنه قائلاً :

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

وبديهي أن يتعجب كل إنسان عنده شيء من سلامة الفكر ، وليست عنده خلفيات سابقة في هذا الموضوع ، وأن يقول : ما الداعي إلى تبرئة ساحة النبي سليمان من الكفر وهو نبي معصوم جليل؟ ، والنبوة لا تقتضي الإيمان فحسب بل النبي الحق يكون إمام المؤمنين وقائدهم ، ومرجعهم وقدوتهم ، إنه مشعل نور ومنارة هدى ومصدر بر وإيمان .

ولكن تتضح أهمية هذا التصريح القرآني ببراءة « سليمان » وعصمته وضرورته وقيمة هذا الرد والتفنيد ودوره عندما ندرس تصريحات العهد القديم عن النبي سليمان ـ والتي أسلفنا بعض نماذجها ـ وندرس تلك الروايات التي راجت واشتهرت في اليهود عن شرك سليمان ووثنيته وتعليمه السحر وغير ذلك ، ومعاذ الله . وعندما نرجع إلى الكتابات اليهودية ، ودائرة المعارف اليهودية (Jewish Encyclopedia) ودائرة معارف الديانات والأخلاق (Encyclopedia of Religion and Ethics) وغيرها من المراجع التي تبيّن نظرية اليهود عن النبي سليمان وما لها من خلفيات تاريخية .

لقد كانت دنيا اليهودية والمسيحية ـ التي لا تعترف بالقرآن مصدراً للعقائد والتعليمات الدينية بل تؤمن بالصحف المقدَّسة ـ متشبثة بهذه

القصص والحكايات ولكنها اضطرت ـ أخيراً ـ إلى الاعتراف بتلك الحقيقة الواضحة التي كان أعلنها النبي الأمي ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ في وادي مكة بعيداً عن مراكز العلم والمدنية ، قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، فقد جاء التصريح في مقال دائرة المعارف البريطانية ـ التي تعتبر خلاصة الجهد والتحقيق البريطاني ـ عن النبي سليمان ـ عليه السلام ـ :

« لقد كان سليمان موحداً »[1] .

وجاء التصريح في « دائرة المعارف للعهد القديم والجديد » (Encyclopedia- Biblical) التي هي نتيجة جهود الفضلاء المسيحيين المختصين في علوم العهد القديم وبحوثهم التاريخية ، أن الفقرات التي جاءت في العهد القديم تصف سليمان ـ عليه السلام ـ بالكفر والشرك ـ والعياذ بالله ـ كلها ملحقة موسوسة ، وجاء فيها تفنيد تلك الأسطورة المرويَّة في العهد القديم التي تقول بأن سليمان كان يعبد بعض الأصنام بتأثير زوجاته[2] . ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ .

٢ ـ ذكر في القرآن الكريم أن الله ـ سبحانه وتقدَّس ـ لم يمسه شيء من الملل والإعياء والتعب بعد أن خلق السموات وما بينهما من عوالم وأكوان :

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : ج/ ٢ ، ص/ ٩٥٢ ، الطبعة الرابعة .

(٢) استفاد العلامة المؤلف في ذلك من التفسير الماجدي (تفسير القرآن) للعلامة الأستاذ عبد الماجد الدريابادي المرحوم ، انظر تفسير آية ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ . . . ﴾ من سورة البقرة فيه (طبع المجمع الإسلامي العلمي ، بلكهنؤ (الهند)) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] .

ويعجب كل من رزق سلامة الفطرة ويعرف صفات الله وأنه القوي العزيز القادر القاهر وأنه « لا يؤوده حفظهما » وأنه « لا تأخذ سنة ولا نوم » من هذا النفي ، ويقول في نفسه ما الذي دعا إلى تصريحه بأنه لم يتعب ولم يمسه شيء من لغوب ؟، ولكن ما يقع بصر الدارس للعهد القديم على هذا النص المذكور فيه :

« خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ، فاستراح في اليوم السابع »[١] .

وجاء في طبعة الملك جيمس الإنجليزية الموثقة للعهد القديم هذا النص التالي[٢] :

And he Rested On Seventh Day From All His Work Which He Had Made.

عندما يقع بصر الدارس على هذا التصريح في العهد القديم والذي لا يزال ينقله الأحبار والرهبان عند ذلك تتضح له أهمية قوله ـ تعالى ـ :

---

(١) سفر التكوين : ٢ ـ ٣ .

(٢) يبدو أنه تفطن العلماء المسيحيون والمترجمون للتوراة أخيراً لخطئهم وخطورة ما ينسبونه إلى الله من ضعف فغيروا في التعبير عند إعادة نظرهم في التراجم حسب ما هي عادتها المعروفة في التاريخ من تغيير وتعديل في نصوص التوراة فجاء في طبعة British and Foreign Biblesociety للعهد القديم لعام ١٩٥٨م هذه العبارة التالية : فرغ من أعماله التي كان يقوم بها في اليوم السابع ، انظر : (سفر التكوين : ٢٠٢) .

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] . وضرورته ومعنويته ومغزاه ، وينكشف ما يقصد بهذا الرد والنفي المبين من فضح للجهل والجرأة على الله ، وتفنيد لسوء فهم أو افتراء وكذب على الله ـ تعالى ـ الأمر الذي تناقله المتزعمون والمدعون للتحقيق والبحث آلافاً من السنين ، ولعلهم تذكاراً لذلك اليوم الذي استراح الله فيه ـ بزعمهم الباطل ـ يحتفلون بيوم السبت ويمسكون فيه عن العمل .

٣ ـ لقد تناول القرآن الكريم بيان معتقدات المسيحيين حول المسيح ـ عليه السلام ـ بثلاثة أساليب :

[١] ـ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾ [المائدة : ١٧] .

[٢] ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

[٣] ـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ ﴾ [البقرة : ١١٦] .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٨٩] .

﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم : ٩٢] .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الإسراء : ١١١] .

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف : ٤] .

هل ترى هذه الفروق بين التعابير القرآنية ، تنويعاً للأسلوب ، ومادة للبلاغة وتصريفاً للقول ، وأنها كلها متَّحدة المعنى مترادفة في المقصود ؟ كلاَّ ! إنها كما يتضح من دراسة تاريخ الفرق المسيحية وتفاصيل عقائدها ـ التي أصبحت الآن في النور ـ فروق دقيقة مقصودة

قصداً لأهميتها وإفادتها لحقائق مرعية .

ويخضع الدارس للإعجاز القرآني العلمي الدقيق عندما يطلع على أنه كان هناك فرقة مسيحية تدعى Adoptionist (أي القائلة بالتبني) التي لم تكن تعتقد أن المسيح هو ابن الله صُلباً وأنه ولده (والعياذ بالله) بل كانت تعتقد بأن الله ـ تعالى ـ تبناه ، لقد كشف النبي الأمي العربي بمبدأ في الحجاز قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، الحجاب عن هذه الحقيقة وراعى هذا الفرق في بيان عقائد فرق المسيحيين التي لم يكن يعرفه المثقفون المسيحيون بهذه الدقة المضبوطة .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [البقرة : ١١٦] .

يقول الأستاذ « عبد الماجد الدريابادي » :

« كانت هناك طائفة كبيرة من المسيحيين تدعى Adoptionist » (الاتحادية أو القائلة بالتبني) وينبغي أن يكون التعبير عن عقيدتهم الأساسية بعقيدة التبني أو « الاتحادية » وخلاصة عقيدتهم هذه ، هي « أن الأقنوم الأول أي الله ـ جل جلاله ـ تبناه واتخذه ولداً وأشركه في ألوهيته ، فهو شريكه في ألوهيته وملكه وجميع صفاته .

ونجد بعض الشواهد على أسباب وعوامل هذه العقيدة في التاريخ عام ١٨٥م ، ثم حكم البابا في رومة في القرن الثامن على هذه العقيدة ، بالإلحاد والزندقة ، فالإشارة في الآية الكريمة واضحة إلى هذا الفرع من طوائف المسيحيين »[١] .

إن هذه الأمور الدقيقة الملحوظة ، وهذا الإعجاز في الإحاطة

---

(١) التفسير الماجدي (تفسير القرآن : ج/١ ، ص/٢٠٤) .

بفروق عقائدهم وخلافاتهم ليس في وسع أي إنسان من البشر ، لا يعرف عن معتقدات اليهود والمسيحيين وخلافاتهم الداخلية الدقيقة ، إنه كلام علام الغيوب الذي ﴿ لَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦ ـ ٢٧] وهو فوق الريبة والشك والظنون ، بريء من نقص البشر وقصوره وضعفه .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ ـ ٤٢] .

* * *

إحدى نبوءات القرآن العظيمة
(نبوءة غلبة الروم)

أهمية النبوءة وغرابتها وأسلوب عرضها :

إن النبوءات التي تضمنها القرآن الكريم تشكل إحدى نواحي الإعجاز القرآني البارزة ، والمعجزة هي تلك الخارقة للعادة التي يظهرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقدرته تصديقاً لنبيه وتأييداً ، ويعجز العقل البشري عن تعليلها الظاهر ، وتأويلها المعتاد .

إن الأوضاع التي أعلن فيها القرآن هذه النبوءات والأوضاع التي تحققت فيها ، كل ذلك معجزة من دون شك ، وإن هذه النبوءات تشتمل على ناحيتين من الإعجاز .

أولاها : العلم بتلك الحوادث والوقائع الخطيرة التي لا تدرك بالقياس ولا بالحنكة والتجربة في الظروف التي لا تساعد على النبوءة بمثل ذلك إطلاقاً .

والثانية : هي تحقيقها ووقوعها حسب إعلان النبوءة وحسب ذلك العلم تحققاً يشهده الناس .

إن أوضح وأقوى وأصرح هذه النبوءات في القرآن الكريم هو نبوءته بغلبة الروم على الفرس بعد هزيمتهم النكراء أمامهم ، اقرأ الآيات التالية :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ١ ـ ٧] .

يدل سياق هذه النبوءة وأسلوبها أنها أعلنت معجزة للقرآن الكريم والرسول الكريم ـ ﷺ ـ وتصديقاً له . لأنها حادثة غريبة غير عادية ، ولأن انتصار لروم كان بعد هزيمة ساحقة نكراء ، ولعله لذلك ذكرت هزيمتهم في الآيتين الكريمة مرتين .

والناحية الثانية في غرابة هذا الحادث وغرابة النبوة أن هذا الانتصار سوف يتحقق في حدود تسعة أعوام ، المدة التي لا تكفي لنهضة شعب منحط متدهور ، ومملكة متضعضعة مُدمَّرة ، ولأن ينقلب المفتوحون المنهزمون فاتحين غالبين .

وقد أكَّد في الآية الكريمة أن هذه الحادثة ستقع على طريق خرق العادة ضد كل القرائن والدلالات الظاهرة وكل القياسات والتقديرات البشرية ، وأنها تكون صنع الله الغالب .

﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ [الروم : ٤] .

ففي الآية إشارة إلى حقيقة أن الله هو الملك المتصرف ، بيده الأمر ، ينزع الملك ممن يشاء ويؤتيه من يشاء ، وأنه في لمحة البصر يحول الغالب مغلوباً ، ويصير الميت حياً ، فليس على علمه قيد ولا حد ولا حاجة له إلى انتظار الظروف الملائمة والأوضاع المساعدة ، فهو المتصرف وحده يتصرف كما يشاء في كل حين وآن :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧] .

ثم صرح بأن ذلك يقع بأمر الله وفضله ، وأن المؤمنين لكونهم أقرب إلى الروميين ـ أصحاب الكتاب ـ بالنسبة إلى الإيرانيين ـ عباد النار ـ وبعد ما لقوا من سخرية المشركين وغيرهم واستهزائهم ما لقوا ، سيفرحون ويسرون أكثر من حزنهم يوم انهزام الروم .

﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم : ٤ ـ ٥] .

ويمكن أن تكون هذه القطعة من الآية تحمل لهم بشرى إلى ذلك الفتح العظيم الحاسم « فتح بدر » الذي تحقق في ساحة بدر في اليوم نفسه الذي تحقق فيه وعد الله بغلب الروم[1] .

وقد يخطر على بال مسلم لماذا ينصر الله المسيحيين الروميين ـ وهم من هم في شركهم وضلالهم رغم أنهم أهل كتاب ـ فقد صرح الله تعالى بأنه ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ ﴾ و ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ ﴾ ، فقد اقتضت حكمته نصر المجوس عليهم ثم اقتضت انتصار الروم عليهم ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

ثم ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هنا من صفاته العليا ما تشير إلى تحقق هذه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بصدد تفسير الآية (سورة الروم ، الآية : ١ ـ ٧) .

النبوءة الخارقة للعادة وتكون دليلاً على إمكانها ووقعها ، فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقد تجلَّت هاتان الصفتان (عزة الله ورحمته) في هذا الحادث ، فظهرت عزة الله وغلبه وقهره ضد المجوس الذين كانوا في سكرة الانتصار ونشوة الفتح ، وظهرت رحمته ولطفه في حق الروميين الذين كانت قد تحطمت قلوبهم وتزلزل كيانهم ، وكادت مملكتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة ، فكان منهم خمسون ألفاً من الأسرى في أيدي المجوس ، يسومونهم الذل والإهانة وسوء العذاب كما كانت هي بشرى سارة للمسلمين الذين كانوا قد حزنوا ـ بطبيعة الحال ـ على هزيمة الروم بالنسبة إلى المجوس ، وكانت إشارة إلى الغلبة والانتصار في المستقبل الذي أكده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأردفه بقوله :

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ .

ثم صرح بأن هذا الحادث خلاف التجارب اليومية ، والمعلومات البشرية الظاهرة ، ولذلك سيستبعده أكثر الناس ويرونه محالًا أو أقرب إلى المحال وضرباً من الخيال .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٦ ـ ٧] .

الخلفيَّة التاريخيَّة :

لنبحث أولًا هنا عن تلك الظروف الحالكة المعاكسة التي كان الناس يرون فيها غلبة الروم وانتصارهم بعيداً عن الفهم والإدراك وشيئاً من المستحيلات ، والذي جعل القرآن يعطيه هذه الأهميَّة ويقدمه علامةً

ودليلاً على القدرة الإلهية وصدق القرآن وإلهيَّة مصدره .

إن استقلال شعب مستعبد ، ونهضة شعب خامل محطم وانتصار مملكة على أخرى ، ليس من الوقائع النادرة أو الاستثناءات الخاصة في التاريخ ، فلماذا أعار القرآن الكريم لهذا الحادث هذه الخطورة والأهميَّة ؟ .

إن هذا الاستفهام يدعونا إلى دراسة تلك البيئة والأوضاع الخاصَّة التي أصبح فيها هذا الحادث يكتسب صفة المعجزة الخارقة للعادة ، هل كان الروميون من الهزيمة والانكسار والتحطيم والهلاك ، وهل كان الفرس من الانتصار العظيم ، وإحكام قواعد الدولة في المناطق والولايات الروميَّة بحيث كان انقلاب الوضع الحربي وتغيُّر الظروف وتحوُّل المفتوح المكسور فاتحاً غالباً ، يعد حادثةً غريبةً استثنائية ، وكانت يد الله فيها تتصرف من وراء الستار على غير المعهود والمعتاد ، ولم يكن للحادث تفسير عقلي ومنطقي يُطْمَأَنُّ إليه ؟ سنرد على هذا الاستفهام ببيانات المؤرخين الأوربيين ، ويكون اعتمادنا فيه على كتاب تاريخ « انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومية » (Decline And Fall of The Roman Empire) للمؤرخ الأديب الإنجليزي المعروف إيدورد جبون (Edward Gibbon) .

دوافع الغزو الإيراني وأسبابه :

لقد لجأ كسرى أبرويز[1] « الذي هو حفيد أنوشروان وابن هرمز » بعد فراره من بهرام جور « الذي خلع هرمز واعتلى العرش الساساني »

---

(١) وهو الذي يدعى في الإنجليزية بـ CHosroes II .

إلى الروم وكان ذلك عهد السلطان موريقس (Maurice) الذي استقبل ولي العهد الإيراني بحفاوة ملوكية بالغة وتبناه[1] ، ثم سير جيشاً بقيادة الجنرال نارشز المعروف (Narses) الذي استطاع بمساعدة الإيرانيين أن يعيد إلى خسرو عرش آبائه السالفين ، وكان ذلك عام ٥٩٠م ، وكان خسرو دائم الشكر لهذه المنَّة من موريقس ، وكان يراه كالوالد المشفق، وبقيت العلاقات بين الفرس والروم إلى آخر عهد موريقس ودِّية طيِّبة ، وكسبت الدولة الرومية بسبب هذه اليد عند خسرو ، منافع مادِّية سياسية عديدة .

وفي عام ٦٠٢م خرج فوقس (Phocas) أحد الجنرالات في الجيش الرومي ضد السلطان، فقتله، وأهلك جميع أفراد أسرته بوحشية وقساوة بالغة ، وتربَّع على عرش القسطنطينية، وأخبر الحاكم الجديد ملك إيران باستيلائه على العرش الروماني والعلاقات الودِّية التي ستبقى كما كانت بين الدولة البيزنطية الرومية ، والدولة الإيرانية ، وبعث إلى بلاط كسرى ليليوس (Lilius) كسفير لدولته ، وقد كان هذا الرجل هو الذي حمل رأس موريقس ورؤوس أبنائه إلى فوقس ، فلما حضر السفير الرومي في بلاط كسرى ، وعلم كسرى تفاصيل الثورة استشاط غضباً ، وقبض على السفير وأبى أن يعترف بالحكومة الرومية الجديدة ، وأعلن في مملكته أنه سيثأر « لأبيه » صاحب اليد البيضاء عليه ، وقد أشعلت عواطف الولاة وحكام الولايات الدينية والقومية هذا الوقود اضطراماً وأثارت الحمية ، حتى قام كسرى بحملته على الدولة الرومية عام ٦٠٣م[2] .

---

(١) وحسب تصريح المؤرخ المسعودي زوَّجه بينته مارية .

(٢) قبل بعثة النبي الكريم ـ ﷺ ـ بسبعة أعوام .

اتساع الفتوحات الإيرانية :

لقد كان فوقس أحرق ناشرز (Narses) أكبر الجنرالات الروم حياً ، في إحدى أسواق قسطنطينية ، ولم يكن إذ ذاك في الجيش الرومي قائد أكثر حنكة منه وتجربة ، فقد كانت الأمهات يخوفن باسمه أولادهن في اسيريا ، وقد ديست الجيوش الرومية بعد قتله بأقدام الأفيال ، وكان كسرى قد كسر من قبل القلاع والحصون الرومية على الثغور ، وعبر نهر الفرات إلى مدن الشام ، فاستولى عليها ودخل هيروبلس (Hierapolis) وشالس (Chalcis) وحلب (من مدن الشام) وأدخلها في مملكته حتى دخل أنطاكية العاصمة الشرقية للدولة البيزنطية ، وأحكم الاستيلاء عليها .

لقد كان هذا السيل العرم للفتوحات الإيرانية دليلاً على انحطاط الدولة الرومية وسقوطها ، وعلى عدم أهلية فوقس للقيادة ، وفتح الإيرانيون بعد ذلك بدون مشقَّة مدينة (قيسارية) عاصمة كيبي دوشيا (Cappadocia)[١] ثم فتحوا دمشق ، والخليل وشرق الأردن حتى استولوا على يروشلم ، وأحرقت كنيسة « مدفن المسيح » (حسب عقيدتهم وزعمهم) وكنائس قيلينا وقسطنطين ، الفخمة الهائلة ، ونهبت النذور والأوقاف الدينية التي جمعت في مدة ثلاثة قرون في يوم واحد ، ونقل

---

(١) هي المنطقة الواقعة في آسيا الصغرى الممتدة ٢٥٠ ميلاً طولاً و١٥٠ ميلاً عرضاً ، ويقع بشرقيها سلسلة جبال طوروس (Mt. Taurus) ونهر الفرات ، وفي غربها غليشيا ولائي كونيا ، وفي الشمال بندامين وفي الجنوب سلسلة جبال طوروس كذلك (دائرة المعارف البريطانية) .

« الصليب الأصلي » (True Cross) إلى إيران ، وقتل من المسيحيين تسعون ألف نسمة .

وتغلغل الإيرانيون بعد الشام في مصر واستولوا عليها ، وامتدَّت حدود المملكة الإيرانية إلى الحبشة وطرابلس الغرب ، كما دخلت المستعمرات البيزنطية وكثير من المناطق الإفريقية في حوزة إيران ، وعاد الفاتح الإيراني على أثر الإسكندر المقدوني في طريق صحراء ليبيا ، واستولت قطعة من الجيش الإيراني ، من الفرات باسفورس (Bosphorus) وشالسيدن (Chalcedon)[1] واستمرت المخيمات الإيرانية العسكرية أمام القسطنطينية لعشر سنوات كاملة ، ولو كانت الدولة الإيرانية تملك الأساطيل البحرية ، لأدخلت في حوزتها جميع ولايات الدولة البيزنطية .

تربع « هرقل » على عرش الدولة البيزنطية :

في نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة البيزنطية تعاني من صراع الحياة والموت ، وكادت تلفظ نفسها الأخير قام هرقل (Heraclius) حاكم إفريقية بثورة عسكرية ضد فوقس ، وقتل فوقس عام ٦١٠م ، وأخذ بزمام الدولة البيزنطية المتدهورة الساقطة ، وكان أول نبأ تلقاه فور توليه لأمور الدولة ، سقوط إنطاكية .

كان يتوقع أن تنطفىء نار الغضب والحقد في قلب كسرى بعد قتل

---

(١) كان موقعه في جنوب غرب مجمع النهرين الفرات وساجر على ستة عشر ميلاً على ذلك الشارع الطويل الذي كان يصل بين شمال سورية والعراق ، (دائرة المعارف البريطانية) .

فوقس ، وكان من المأمول أن يتقدم كسرى بالشكر لهرقل على أنه كفاه القتال ، وأنه تكفل عنه بالقصاص من قاتل « أبيه » صاحب النعمة واليد عليه ، والمتسلِّط على مملكته بعد الإطاحة به ، ولكن نوايا كسرى قد تغيَّرت ، فاستمر في إجراءاته التعسُّفية العدوانية ، ولم ينصرف عن تكميل سلسلة فتوحاته التي كان بدأها ضد فوقس .

مشاكل الدولة البيزنطية :

انهزم الروميون في عام ٦١٦م هزيمة كاملة ، وخسروا إمبراطوريتهم العظيمة وفقدوها على أيدي الفرس ، وكانت هناك ـ عدا هذه الخسائر في المناطق الشرقية على أيدي الغزاة الإيرانيين ـ ثورات وانقلابات في أوربة كلها .

فكان الوحوش الآوارس (Avars) يعيثون في أوربا من حدود المجر إلى جدران تدرس ظلماً وفساداً وبربرية ، كما أن دماء أولئك الأبرياء التي أريقت في الحرب الإيطالية بسخاء لم تكن قد جفَّت بعد .

وقبل ذلك كانت هناك عمليَّة إبادة للأسرى الذين قبض عليهم في ساحة « بنسونيا » (Pansonia) المقدسة ، كما استرقت النساء والولدان ، وانحصرت الدولة البيزنطية في أسوار القسطنطينية وفي بعض المناطق من اليونان وإيطالية وإفريقية ، وفي مواضع عدة قرى ساحلية على الساحل الآسيوي من صور (Tyre) إلى طرابزون (Trebizond) .

وغزت عاصمة الدولة بعد سقوط مصر ، الأوبئة والأمراض والقحط ، وكانت تحمل من مصر إلى القسطنطينية الحبوب والغلات ، فلما سقطت مصر ، انقطعت هذه الميرة ، وكان توزيع الحبوب والغلات في القسطنطينية من عهد القسطنطيني ٣٠٣م توزيعاً عاماً يهدف

إلى جذب الناس إلى العاصمة وإقامتهم فيها ، وقطع هذا التوزيع عام ٦١٨م لأول مرة لأجل انقطاع الاستيراد .

سيرة هرقل :

لقد أجمع المؤرخون لحياة هرقل على أنه ـ رغم هذه الوقائع الهائلة والفتوح الإيرانية المدمرة ـ كان بارداً لا تملكه عاطفة ، ولا تحركه حياة ، إنه كان يشهد بعيني رأسه سقوط الدولة البيزنطية وانتهاءها ، كما يقول عنه المؤرخ جبون :

« لقد كان هرقل في بداية عهد ولايته ونهايته رجلاً كسلان ، ضعيف الهمة ، عبد اللذائذ والمتع ، خرافياً ، متفرجاً ، قزماً فاقد الحمية على نكبات شعبه وويلاته » .

نبوءة القرآن الكريم :

في هذه الظروف الحالكة عام ٦١٦م التي كانت الدولة البيزنطية فيها تعاني من سكرة الموت ، تنبأ القرآن الكريم وهو ينزل في مكة المكرمة على أمّيٍّ من البشر .

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٢ ـ ٤] .

يقول المؤرخ المسيحي جبون :

« لقد تنبأ محمد ـ ﷺ ـ في الوقت الذي كانت فيه الفتوحات الإيرانية في عنفوانها وشدة اكتساحها ، بأن الرايات سوف تخفق بالفتح والانتصار في بضع سنين وأنه لم يكن هناك عندما أعلنت هذه النبوءة ، شيء أبعد في القياس وأغرب عن العقل من هذه النبوءة ، لأن الأعوام

الاثني عشر الأولى من ولاية هرقل كانت تنذر بالسقوط الوشيك والنهاية الأخيرة للدولة البيزنطية »[1] .

لقد كان ذلك العام الخامس من بعثة النبي الكريم - ﷺ - وكان مشركو مكة يفرحون ويطربون على هذا الانتصار الإيراني العظيم والهزيمة الرومية المخزية ، وكانوا يرون فتح الإيرانيين وانتصارهم ، انتصار أصدقائهم ، وفألًا مبشراً لهم إذ كانت تربط بينهما وشيجة الشرك وصلة الوثنية ، فلما نزلت هذه الآيات الأولى من سورة الروم ، وعلم بها الكفار والمشركون ، استبعدوها في القياس بل رأوها ضرباً من الخيال ، واشترطوا مع المسلمين أن الروم إذا انتصروا فعلاً فإنهم يعطون المسلمين عدداً من الإبل ، وإذا لم تتحقق هذه النبوءة فإن المسلمين يعطونهم إياها .

وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - الذي كان شريكاً في هذا الشرط ، حدد لتحقيق النبوءة خمس سنوات ، ولكن لما علم النبي الكريم - ﷺ - بذلك ذكر له أن البضع متردد بين الثلاث إلى التسع ، فليحدد تسع سنين ، ففعل أبو بكر ذلك[2] .

ظهور النبوءة وتحقيقها :

أراد « هرقل » بعد أن أحيط بهذه المشاكل والنكبات - التي تقدمت سابقاً - أن يهاجر من القسطنطينية ويلجأ إلى مدينة قرطاجنة[3]

---

(١) تاريخ انحطاط وسقوط الدولة البيزنطية : ج/٣ ، ص/٣٠٣ طبع ١٨٩٠م (Decline And Fall Of The Roman Empire) .

(٢) انظر جامع الترمذي ، كتب التفسير .

(٣) كانت هذه المدينة بقرب تونس حالياً .

(Carthage) الآمنة المطمئنة ويتخذها مركزه وعاصمته ، وقد كانت سفنه الشراعية محملة بثروات القصر الملكي وحليه وجواهره ، مستعدة للإقلاع إذ حرضه البطريق على القتال وشجعه وشد أزره ، فجاء هرقل إلى كنيسة (St. Sophia) وحلف أن حياته وموته مع هؤلاء الذين ولَّاهم الله أمرهم .

ويقدر انهزامية الإمبراطور الرومي من أن بعث أحد القادة الإيرانيين وعدد من المسؤولين الروميين إلى كسرى إيران ، يستجدي منه العفو وإعلان حالة الأمن، فلما حضروا لدى كسرى قال : إنها ليست بسفارة، إنه في الواقع « هرقل » سيق إلى عرش إيران مغلوباً لا مصفداً ، ولا أعطيه الأمن حتى ينخلع عن « ربه المصلوب » ويختار عبادة الشمس .

ولكنه بعد تجارب ست سنوات رفع يده عن فتح القسطنطينية وأعطى الروميين الأمان على شرط أن يقدموا كل عام ألفاً من التالنت (Talent) الذهبي وألفاً من التالنت الفضيٍّ وألفاً من الحلل الحريرية ، وألفاً من الخيول وألفاً من الفتيات الباكرات كخراج إلى البلاط الإيراني .

لقد كانت هذه الشروط المخزية المهينة والتي كانت كفيلة بأن تستفزَّ مشاعر الروميِّن وتشعل فيهم نيران الغيرة والحميَّة ، والثورة ، أفادت هرقل وأحدثت في نفسيَّته انقلاباً ، فأعلن حرباً دينيَّة مقدَّسة (Sacred War) واستقرض للنفقات الحربية من أوقاف الكنائس ومواردها بشرط أنه سوف يردها بفوائد ربوية .

انقلاب في هرقل :

لقد نشأت في طبيعة هرقل الخامدة وعزائمه الكليلة وجثته الهامدة

روح جديدة ، وحدث انقلاب جذري في حياته ، فلم يكن هو من الآن هرقل الكسلان المترف الناعم ، بل كان قائداً فاتحاً طموحاً يقظاً متحمساً ، ذا همة وعزيمة صارمة ، قلقاً على أوضاعه ، مضطرباً لاستعادة إمبراطوريته السليبة ، ونفخ الحياة في شعبه الميت الخامد من جديد .

يقول المؤرخ جبون :

« كما أن ضباب الليل والصباح ينقشع بالشمس في رائعة النهار ، كذلك تحول « آركاديوس »[1] الحور والقصور ، قائد الساحة وفارس الميدان ، واستبقيت عزة هرقل وعزة الروم بطريقة رائعة جداً »[2] .

زحف هرقل وانتصاراته :

أنزل هرقل جيوشه الكثيفة في خليج الإسكندرونة على يسار الساحل الغربي الجنوبي من آسيا الصغرى ، وأصلح قلاع المدن الساحلية ودرب الجنود الجدد تربية عسكرية منظمة ، ودعا شعبه الرومي بمناسبة إزاحته الستار عن تمثال المسيح ـ عليه السلام ـ إلى الانتقام والثأر من عبّاد النار ، وألقى خطبة حماسية مؤثرة ، نفخ بها روح العداوة والانتقام . وبعد أن فتح هرقل مدينة سليشيا (Cilicia) توجه إلى كيبى دوشيا (Cappadocia) وعبر جبال أرمينيا والبحر الأسود حتى تغلغل في قلب إيران ، ومشى من القسطنطينية بخمسمئة من صفوة الجنود إلى

---

(١) « آركاديوس » ملك يضرب به المثل في الترف والرخاء وقلة الأنفة .

(٢) تاريخ انحطاط وسقوط الدولة البيزنطية : ج/٧ ، ص/٧٦ ، طبع لندن ١٩٠٨م .

طرابزون ، وفتح مدينة طوروس ، ومناطق جندزاطا وموغان ، وكسر المسيحيون المعابد المجوسية ، وأحرقوا تماثيل كسرى ، وانتهكوا حرمة « مولد زرادشت » ، ثأراً لكنيسة « مدفن المسيح » واستردوا خمسين ألفاً من الأسرى المسيحيين .

ودخل هرقل في « ساباط » ثم زحف إلى مدن قزوين وأصفهان ، وتعرَّضت الدولة الإيرانية لخطر الزوال ، وطلبت الجيوش الإيرانية من وادي النيل وباسفورس ولكن هرقل هزم هذه الجيوش الحاشدة ، شر هزيمة ، وبعد مروره بجبال كردستان عبر هرقل نهر دجلة ، ودخل « ساباط » بعد حرب دموية ، ثم وقعت معركة حاسمة في ساحة نينوا ، دخل بعد الانتصار فيها « دستجرد » ووصل إلى ما يقرب من المدائن حوالي بضعة أميال ، ثم كرَّ فاتحاً منتصراً إلى القسطنطينية .

وقوع النبوءة وتمامها :

تحطَّمت الدولة الإيرانية وداس الروميون بعد أن تجاوزوا الحدود التاريخية القديمة للدولة البيزنطية الأراضي الإيرانية ، ونصبوا في قلب إيران الراية الرومية ، وهكذا تمَّت هذه النبوءة القرآنية وحققت في عام ٦٢٥م أي السنة الثانية من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ـ بمناسبة غزوة بدر الفاصلة بعد تسع سنوات من تاريخ إعلان النبوءة بالضبط ، ولم يكن ثمة من القرائن والدلائل الظاهرة ما يشير إلى تحقق ذلك أو ينم عنه .

عودة هرقل إلى خموله :

اتفق المؤرخون الأوربيون على أن أروع عهود هرقل للحكم

وألمعها في جبين التاريخ ، هو ذلك العهد الذي ثأر فيه من الفرس واسترد مملكته المفقودة ، وأن بداية عهده ونهايته لا تمتان إلى هذا العهد الأوسط بصلة ، ويبدو أن القدرة الإلهية المحصنة حرَّكته وقدَّمته لهذا العمل العظيم .

فإنه قد عاد بعد تكميل مهمته ، ذلك القيصر الخامل المترف المترهِّل الذي عهدناه من قبل ، وأنه أسلم ـ كما يقول جبون ـ تلك الولايات التي استعادها من الفرس بحروب دامية وجهود ضخمة وتضحيات بالغة إلى العرب على مرأى منه ومسمع .

وقد حار المؤرخون في تعليل هذا التغير والانقلاب في نفسيَّته وطبيعته وصلاحيَّته ويقظته في عهده الأوسط ، وغفلته وعدم جدارته وقدرته في أول عهده ، ونهايته ، وقد حاولوا تعليلات مختلفة لعدم توازن هذه الحوادث وتنافرها ، والتعارض العجيب من أدواره المختلفة ، يقول المؤرخ جبون :

« كان الواجب على المؤرخين البيزنطيين أن يحللوا لنا أسباب غفلة هرقل هذه وسباته ، ويقظته وتحركه ، ونحن على هذه المسافة الزمنية البعيدة بيننا وبينه نستطيع أن نتوصل إلى أنه كان رزق الجرأة الشخصيَّة أكثر من العزيمة السياسية وأنه كان هائماً بجمال بنت أخيه (مارتينا) الساحر ، التي خادنها واتخذها حليلته وأنه كان آخذاً بمشورة مستشاريه الخرقاء وهي أن حياة ملك لا ينبغي أن تضيع في ساحات القتال ، ولعله كان استشاط غضباً بمطالبات الفاتح الإيراني المخزية »[1] .

---

(١) (Decline And Fall of The Roman Empire) ج/٧ ، ص/٧٦ ـ ٧٧ .

ويقول كاتب المقال حوله في دائرة المعارف البريطانية: « إن هرقل لغز من الألغاز العجيبة الغريبة، التي يصعب حلها، إنه ـ رغم كونه شجاعاً مقداماً في شخصيته، محنكاً صالحاً للقيادة في سياسته ـ بقي ينظر بهدوء وطمأنينة إلى مملكته وهي تخرق وتبدد، إن صلاحياته ووجهات حياته في مختلف أدواره ليست مختلفة فحسب بل متعارضة متعاكسة.

ولكن يجب أن لا ننسى أن معلوماتنا عن حياته الأسرية الداخلية ناقصة قليلة، فيمكن أن يكون وراء هذا التعارض سبب حقيق آخر، وإن كان لا يعتبر تبريراً صحيحاً لعمله، لقد كان أفضل لبقاء صيته وجميل ذكره أن كان قد مات بعد معاركه مع الفرس »[١].

لقد اعترف جميع المؤرخين الأوربيين في هذه التصريحات أن هرقل كان قد تحول عند حربه مع إيران إنساناً آخر بطريقة غريبة، وأنه حدث فيه تطور عجيب.

ونشأت فيه روح قلقة لم تعد بعد الحرب إليه، وأن كل ما أحرزه واستعاده من الإيرانيين، فقده بغفلته وتخاذله أمام العرب.

هذا ما يقوله المؤرخون الأوربيون، ولا نسلِّم لهم ادعاءهم الأخير بأنه تخاذل أمام المسلمين العرب، فنحن نشك في أن هرقل لم يقاوم الغزوات الإسلامية وأن غفلة هرقل وعدم صلاحيته للقيادة كانت أكثر تسبباً في هزيمة الروم أمام المسلمين من قوة الإسلام وشبابه، وسيرة المسلمين الطاهرة، ولا نخوض هنا في هذا البحث فهو خارج عن موضوعنا هذا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

---

(١) دائرة المعارف البريطانية: ج/ ١١، ص/ ٦٨٢، الطبعة التاسعة.

نماذج من نبوءات أخرى في القرآن الحكيم

توجد في القرآن ـ عدا النبوءة السابقة بغلبة الروم التي اخترناها بشيء من الشرح والتفصيل ـ نبوءات أخرى عديدة ، ولا نقصد هنا استيعابها بل نورد ـ كأمثلة ـ بعضاً من أهم النبوءات الواردة فيه ، ويمكن أن يرجع في شرحها وتفاصيل وقوعها إلى تاريخ ما بعد نزول القرآن الكريم .

فمنها :

١ ـ النبوءة باستخلاف المؤمنين الموحدين العابدين :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

٢ ـ النبوءة بانتصار المهاجرين وسلطتهم ونتائج هذه السلطة الدينية والخلقية :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ
أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج : ٣٩ ـ ٤١] .

٣ ـ النبوءة بظهور مسلمين جدد صالحين أصحاب كفاءات إسلامية ، وخدماتهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

٤ ـ النبوءة بقتال المرتدين العرب ومعارك الإسلام مع الروم وإيران :

﴿ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [الفتح : ١٦] .

٥ ـ النبوءة بظهور الدين وغلبته :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] .

٦ـ النبوءة بحفظ القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

٧ـ النبوءة بجمع القرآن ونشره وتفسيره وبيانه :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ ـ ١٩] .

يقول حكيم الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي (م١١٧٦هـ) وهو يفسر هذه الآية الكريمة :

« ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ يعني أننا وعدنا وعداً لازماً أن نجمعه في المصاحف وقوله : ﴿ قرآنه ﴾ يعني أننا نوفق قراء أمة محمد ـ ﷺ ـ وعامتها لتلاوته ، حتى تبقى تلاوة متواترة ، لا ينقطع استمرارها ، ويقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه : لا تهتم ولا تظن أن القرآن ينسى من قلبك ، ولا تحاول الترداد والحفظ ، فإنها من المعجزة أن النبي الكريم ـ ﷺ ـ لم يحتج إلى معاناة ترداد الآيات وتكريرها للحفظ ، كما يعاني ذلك من يحاول حفظ القرآن ، فإن القرآن كان يتمكن من قلبه ـ ﷺ ـ بتلاوة جبريل ـ عليه السلام ـ لأن الله تعالى كان قد أعطى وعداً جازماً بما سوف يتحقق بعد عهد رسالته ، وهو جمع القرآن في المصاحف وتلاوة العامة والخاصة له ، فلا تتحمل أيها النبي مشقة الحفظ ، بل عندما نتلو ذلك على لسان جبريل ، فأرهف إليه سمعك ، ثم علينا الوعد بشرحه وتفسيره الذي سوف نوفق له في كل عصر طائفة من أمتك يشرحون مفردات القرآن ، ويبينون أسباب نزوله ويفسرون معانيه ومطالبه ، وهذا تحقق كذلك بعد تلقي النبي الكريم ـ ﷺ ـ للقرآن ،

وتلاوته على الناس ولا سيما بعد عهده - ﷺ - وذلك لأن الآيات الكريمة متشابهة بعضها ببعض ، مصدقة بعضها لبعض ، والنبي الكريم - ﷺ - هو المبين عن الله ما نزل إليه » .

« وقد تحقق وعد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم بأنه جُمع وحُفظ في المصاحف ويتلوه المسلمون شرقاً وغرباً ، آناء الليل وآناء النهار ، وهذا هو معنى ما جاء أن الماء لا يمحوه ، ويعيد إيراده ﴿ جمعه وقرآنه ﴾ في مكان واحد وذكره ﴿ بيانه ﴾ بعد ﴿ ثم ﴾ (التي تقتضي التراخي) ، أن القرآن الكريم زمن جمعه في المصاحف عمَّ في الناس وشاع تلاوةً وقراءةً أيضاً ، أما تفسيره وبيانه فتأخرا زمنياً »[1] .

٨ ـ النبوءة بفتح مكة المكرمة وإنجازات صلح الحديبية المثمرة :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح : ١ ـ ٣] .

٩ ـ النبوءة بفتوح وانتصارات ومغانم كثيرة في خيبر وغيرها :

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ [الفتح : ٢٠ ـ ٢١] .

١٠ ـ النبوءة بدخول النبي الكريم - ﷺ - وأصحابه المسجد الحرام بعد الحيلولة بينه وبينهم :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا

---

(١) « إزالة الخفاء » للإمام ولي الله الدهلوي : ج/١ ، ص/ ٥٠ ـ ٥١ ، طبع بريلي ١٢٨٦هـ .

تَخَافُونَ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

١١ ـ النبوءة بدنو أجل النبي الكريم ـ ﷺ ـ وانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجاً :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر] .

١٢ ـ النبوءة بإعطاء الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ الكوثر :

وتكثير أتباعه وأنصاره وورثة دينه وحملة دعوته وانقطاع دابر الكفار واندثار رسومهم وآثارهم :

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر] .

* * *

القرآن الحكيم معجزة الهداية
والانقلاب البنّاء المبارك

« إن الانقلاب البنّاء المبارك الذي أحدثه رسول الله ـ ﷺ ـ بهذا القرآن الحميد وبسيرته النبوية الطاهرة وأخلاقه العظيمة العليّة ـ التي كانت تفسيراً عملياً واضحاً للقرآن الكريم (كان خلقه القرآن) ـ في العقائد والأفكار والروح والأخلاق والفرد والاجتماع ، وفي النفسية الإنسانية والطبيعة البشرية ، والذي يخلو التاريخ البشري كله من أمثاله ونظائره ، قبله وبعده ، إن هي إلا معجزةً قرآنيةً قائمةً » .

وإن هذه المعجزة القرآنية تضم بين جنبيها مئات من المعجزات ، إن كلَّ من تأثر بهذه النبوءة فرداً كان أو جماعة ، يعدُّ معجزةً مستقلة برأسها ، وإنه لم يشهد التاريخ البشري في أيِّ بقعة محدودة من بقاع الأرض ولا في أي ثلَّة قليلة من جماعات البشر مثل هذا الانقلاب العميق الشامل .

وينبغي هنا أن نوازن بين الجاهلية والإسلام ، ونجلى جوانب هذا الانقلاب الشامل المحيط وآثاره ونواحيه ، وهذا يضطرنا إلى عرض التاريخ العقلي والفكري والديني والخلقي والاجتماعي التفصيلي لعهدين منفصلين متمايزين ، الأمر الذي يحتاج ليس إلى كتاب فحسب بل إلى حلقات وحلقات من الكتب الباحثة المفصَّلة ، وإن وقائع

الإسلام والجاهلية وتاريخها المنشور في القرآن وكتب السيرة النبوية ، وكتب التاريخ الموثوق بها لو جمعت وضم بعضها إلى بعض لأمكن تقدير شيء من عظمة ذلك الانقلاب الذي أحدثه القرآن الكريم .

ومن جوانب الإعجاز في هذه المعجزة أن هذا الانقلاب الشامل المحيط تحقق من دون تلك الوسائل والأدوات التي عرفها ويعرفها البشر ـ بصفة عامة ـ والتي استخدمها ـ عامة ـ المجدِّدون والمصلحون في عهودهم وفتراتهم ، وأعني حركة العلم والدراسة والتدريس ونشر التعليم ، والتأليف والتصنيف ، وإقامة المدارس والمراكز التربوية ، والمطابع ودور النشر والتوزيع . . . إلخ .

وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى هذا الجانب من الإعجاز إشارات لطيفة ، انظر كيف تحوَّل الأعداء الألدَّاء الذين كان كل واحد منهم يظمأ إلى دم الآخر أصدقاء ودودين يعيشون المحبة الأخويَّة الصادقة ، والودَّ الطيب الكريم ، الذي لم يكن ليحرز ولو أنفق كل ما في الأرض :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ـ ٦٣] .

ونسب القرآن الكريم حدوث التحوّل والانقلاب العظيم إلى نفسه في غير ما موضع ، وصرح بأن القرآن هو منشىء هذا الانقلاب ومشعله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

ويقول في موضع آخر :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الحديد : ٩] .

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

وقد شرح القرآن الكريم الإسلام والجاهلية في أسلوبه المعجز البليغ ، وبيَّن الفارق الهائل العظيم بين هذين العهدين المتمايزين :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

والحق الذي لا غبار عليه أنه لا يمكن تصوير للجاهلية والإسلام أبرز وأنطق بالحقيقة من هذا التصوير ، ولا يمكن شرح الفوارق بين العهدين وبيان خصائص الفترتين بأوضح وأبلغ من هذا البيان ، إن تاريخ الجاهلية والإسلام كله ليس إلا تفسيراً لهاتين الآيتين ، وتفصيلاً لهذا الإجمال البليغ ، ما هي الجاهلية ؟ هي : ﴿ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

وما هو الإسلام مجملاً ؟ هو ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ .

ولا يمكن تصوير أرقى إنسان في الجاهلية بأصح ولا أبلغ من هذا التصوير القرآني ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا ﴾ ، وإذا أردت أن تصوِّر الثورة

الإسلامية بل سلسلة الثورات الإسلامية في الحياة البشرية فلا أبلغ ولا أدل على ذلك من تصوير القرآن الكريم :

﴿ فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ .

* * *

القرآن الحميد والصحف السماوية القديمة
في ميزان العلم والتاريخ

لقد كانت الصحف السماوية السابقة على القرآن الكريم هدفاً دائماً للتحريف والتعديل والتغيير ، وعرضة للضياع والتفرُّق والاندثار ، وذلك لأن الله تعالى لم يتكفَّل بوعده لها بالحفظ والبقاء ، بل وكل أمرها إلى علمائها وحَملتها وناقليها كما أن حاجة البشرية إليها سواء من آمن بها ومن كفر كانت محدودة مؤقتة ، يقول الرب ـ تبارك سبحانه وتعالى ـ :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وهذه حقيقة تاريخية علميَّة يعترف بها أتباع هذه الصحف وحملتها الذين أنزلت إليهم ، أن صحف العهد العتيق تعرَّضت ـ دائماً ـ للسطو والإحراق والإغارة ، وقد اتفق المؤرخون اليهود أنه وقع ذلك في التاريخ ثلاث مرات ، المرة الأولى : عندما حمل « بختنصر » (Nebuhadnezzar) (٥٦٤ق.م) ملك بابل على اليهود عام ٥٨٦ق.م ، وأحرق بيت المقدس ، الذي كان سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ أودع فيه ألواح التوراة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وأسر من بقي

من اليهود وحملهم مقيدين إلى بابل ، حيث مكثوا خمسين سنة ، وأملى النبي عزرا (عزيز) الصحف الخمسة الأولى من التوراة من حفظه مرة ثانية ، وألف الوقائع والحوادث بالترتيب التاريخي ، ثم أضاف إليها « نحميا » سلسلة أخرى من الكتب ، وألحق بها « زبور » النبي داود ـ عليه السلام ـ .

والمرة الثانية : عندما أغار « أنطيوخوس » الرابع (Antiochus) الذي كان يلقب بـ « أبيقانس » وكان ملك أنطاكية اليونانية على بيت المقدس عام ١٦٨م وأحرق الصحف المقدَّسة ، وفرض الحظر على تلاوة التوراة وعلى الشعائر والتقاليد اليهودية ثم بدأ « يهودا مقابى » بجمع هذه الصحف وترتيبها ، وأضاف إليها سلسلة من كتب العهد العتيق .

والمرة الثالثة : حمل « تيطوس » (TiTus) (٤٠ـ٨١م) الملك الروماني على بيت المقدس في ٧/ من سبتمبر عام ٧٠م وأحرقه مع هيكل سليمان ، وحولها أنقاضاً ورماداً ، وأخذ الصحف المقدسة ـ تذكاراً لانتصاره ـ إلى العاصمة الرومية ونفى اليهود ، وأقام حول البلد مستعمرات أسكن فيها ناساً آخرين[1] .

إن موقف اليهود والمسيحيين من صحف الأنبياء والكتب السماوية ومعاييرهم لصحتها وصيانتها ومطابقتها لأصولها ، تختلف تمام الاختلاف عن موقف المسلمين من القرآن الكريم ومعاييرهم لصحته

---

(١) انظر مصادر تاريخ الصحف المقدسة ، ودائرة المعارف اليهودية ، وتوجد إشارات إلى هذه الحوادث في صحيفة نحميا ومقابين أيضاً .

وثبوته ، إن المسلمين يعتقدون أن كل لفظة بل حرف في القرآن الكريم منزلة من عند الله ـ تعالى ـ محفوظة مصونة من يوم نزولها إلى يومنا هذا ، أما اليهود فإنهم لا يرون النقص والزيادة في صحفهم والتعديل والإلحاق فيها ينافي كونها كتباً سماوية ، وإنهم لا يتحرجون إطلاقاً من وصف هذه الصحف بأنها من تأليف الأنبياء ، ويمكن أن يقدر موقف اليهود من كتبهم المقدسة وعقيدتهم ووجهة نظرهم فيها من المقتطفات الآتية ، جاء في دائرة المعارف اليهودية التي قام بتأليفها كبار الفضلاء والمختصين اليهوديين :

« رغم إصرار الروايات اليهودية على أن صحف العهد العتيق هي من مؤلفات تلك الشخصيات التي ذكرت فيها ، وليس ذلك مما يخالف الواقع بتاتاً ، ولكنهم لا يرون بأساً في الاعتراف بأنه وقع في بعض هذه الصحف تعديلات وإلحاقات »[١] .

« إن الصحف الخمسة الأخيرة من التوراة (عدا الآيات الثمانية التي فيها ذكر موت موسى ـ عليه السلام ـ) ـ هي حسب الروايات اليهودية القديمة ، من تأليفات موسى ـ عليه السلام ـ ولكنَّ الربِّيِّين لم يزالوا يعنون بالتناقضات والاختلافات الموجودة في هذه الصحف ، ويقومون ـ ببراعتهم ـ بإصلاحاتها وتعديلاتها »[٢] .

« يقول سبينوزا (Spinoza) : إن الصحف الأولى من العهد العتيق

---

(١) دائرة المعارف اليهودية (Valentine"s one Volume Jewish Encyclopedia) P.93 . ص/ ٩٣ .

(٢) دائرة المعارف اليهودية : ج/ ٩ ، ص/ ٥٨٩ ، ٥٩٠ .

ليست من تأليف موسى ـ عليه السلام ـ بل هي من تأليف عزراً (عزير) ـ عليه السلام ـ »[١] .

إن أحدث التحقيقات العلمية قد أثبتت على سبيل القطع واليقين أن الكتب الخمسة الأولى من العهد العتيق مؤلفة مما لا يقل عن ٨٢ مصدراً من المصادر »[٢] .

أما الأناجيل الأربعة (التي تسمى العهد الجديد) فشأنها أكثر تناقضاً واختلافاً من صحف العهد العتيق ، ويحيط تدوينها ومؤلفيها كثير من الغموض والتعقيد والعقبات والشكوك ، ويوجد بينها وبين المسيح ـ عليه السلام ـ خليج واسع كبير ، ولا يمكن ردمه أو عبوره لأي مؤرخ أو محقق ناقد ، فقد كانت الأناجيل في المجامع الكنسية ومختلف الفترات الزمنية عرضة للتغيير والتحوير والإصلاح والتعديل بصفة مستمرة ، وعلاوة على ذلك فإنها أشبه بكتب السير والتاريخ ، والقصص والروايات ، منها بالكتب السماوية ، والوحي الإلهي والإلهام الرباني .

إن هذه الأناجيل ليست بمستوى مجموعات الأحاديث بالدرجة الثانية أو الثالثة ، فضلاً عن أن تكون على مستوى الكتب الستة ، لأنها

---

(١) المصدر السابق : ص/ ٥٩٠ .

(٢) مقتبس من التفسير الماجدي (تفسير القرآن) ويرجع للاطلاع على تحديد زمن المؤلفين الأناجيل الأربعة ، واختلافات المصادر والمراجع (التي ألفت منها هذه الصحف) إلى الكتاب المهم (History of Religions) (تاريخ الديانات) للبروفيسور جيمس (E.O.James) أستاذ تاريخ الديانات في جامعة لندن .

مجموعات متصلة السند إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أولها أسانيد يعتمد عليها ويرجع إليها ، والحديث الصحيح عند المسلمين ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير أن يكون فيه شذوذ أو علة[١] ، وعلى العكس من ذلك تخلو جميع الأناجيل من جميع أنواع السند ، فليست هناك أسانيد متصلة إلى مؤلفيها ، ولا من مؤلفيها إلى سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ .

هذا وإن هذه الصحف التي بأيدينا ليست هي في تلك اللغات التي نزلت بها ، والتي كان ينطق بها المسيح ـ عليه السلام ـ وقومه ، بل لم تزل تنقل من لغة إلى لغة ، ووصلت عن طريق مختلف المترجمين والناقلين ، فهي ـ في الواقع ـ مثل كتب السيرة والتاريخ بل مثل كتب القصص والمواعظ ، ليس إلا .

وإذا لم نعدها ـ احتراماً لها وتقديراً لأصولها ـ من كتب الروايات الضعيفة والواهية ، فلا أقل من أن نعتبرها كمجموعات الحديث بالدرجة الرابعة ، التي لم يلتزم صحتها ولم تراع فيها قواعد الرواية والتحديث ، ولأجل كل هذه الحقائق الراهنة نرى الموازنة بين القرآن الكريم وبين هذه الصحف القديمة خطأ صريحاً ، مبنياً على الغفلة وقلّة العلم ، فإن الموازنة لا تكون إلا بين شيئين متقاربين متماثلين .

ولقد أحسن المهتدي الفرنسي إلى الإسلام موسيوايتين دينية (Monsieur Eaton Dien) إذ قال وهو يعرف بهذه الأناجيل ويحدد مكانتها العلمية والتاريخية :

---

(١) انظر تعريف الحديث الصحيح في كتب أصول الحديث كمقدمة ابن الصلاح و« تدريب الراوي » و« فتح المغيث » .

« إن الإنجيل الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على عيسى ـ عليه السلام ـ بلسانه ولسان قومه ، لا نشك في أنه قد ضاع ، وأنه لم يبق له عين ولا أثر ، وهو إما تعرض لعوادي الزمن ، أو أتلفته الأيدي ، ولذلك اقتنى المسيحيون مكانه أربع مؤلفات يشك في صحتها ومكانتها التاريخية ، لأنها توجد في اللغة اليونانية التي لا توافق طبيعتها لغة عيسى ـ عليه السلام ـ الأصيلة السامية ، ولذلك فإن صلة هذه الأناجيل اليونانية بمنزلها واتصالها به أضعف من صلة توراة اليهود ، وقرآن العرب »[1] .

وتشير الشواهد الداخلية في العهد العتيق على أخطائه التاريخية الصريحة والتناقضات الواضحة والمستحيلات العقلية ، فقد نسب فيه ـ على سبيل المثال ـ إلى الله ـ تعالى ـ ما لا يليق أبداً بجلاله وعظمته ، ولا يناسب صفاته التي اتفقت عليها جميع الديانات السماوية ، ويقر بها العقل السليم ، وجاءت فيه اتهامات للأنبياء لا يتهم بها الإنسان العادي ويسمو عليها ، هذا وغير ذلك من الشواهد الداخلية التي توجد في التوراة والأناجيل التي تسمى مجموعتهما (بايبل Bible) أو الكتاب المقدس[2] ، تدل على الزيادات والإلحاقات والتعديلات .

---

(١) أضواء على المسيحية : ص/٥٢ ـ ٥٣ ، وعبارته يبدو فيها مساواته بين التوراة والقرآن ، في الثقة ، فلعلها صدرت منه قبل إسلامه أو أنه أراد به غير معناه الظاهر ، كما أن قوله : « قرآن العرب » تعبير غير سليم .

(٢) يرجع إلى كتاب « إظهار الحق » الكتاب الفريد في موضوعه للعلامة الشيخ رحمة الله الكيرانوي (م١٣٠٨هـ) دفين مكة المكرمة ، فقد ذكر المؤلف ١٢٢ اختلافاً وتحريفاً لفظياً في هذه الصحف ، وأخذ عليه ١٠٨ من الأخطاء التي لا يمكن تأويلها وقد طبع الكتاب على نفقة الشؤون الدينية في=

هذا شأن تلك الصحف التي يقدِّسها أتباعها منذ آلاف السنين ، والتي يعتقد فيها ويحمل لواءها شعبان اثنان من شعوب العالم المتمدنة « الراقية » (الشعب اليهودي والشعب المسيحي) واعترف بها الإسلام أيضاً إلى حد أنه خاطب حملتها بـ « أهل الكتاب » ولقبهم به .

أما « ويدا » الهند ، و « أوستا » إيران فإن زمنهما أعرق في القدم ، وإن المعلومات التاريخية عنهما أقل ، والتوصل إلى معانيهما الحقيقية ومقاصدهما الأساسية أعسر وأصعب مع عوادي الزمن والحوادث التاريخية بحيث يشك في صحتهما شكاً قوياً ، ويتعسر الوصول إلى تحديد زمنهما ، وإبداء أي رأي علمي حولهما .

يقول بارته (A.Barth) عضو الجمعية الملكية الآسيوية لباريس (The Society Asistis of Paris) في كتابه The Religions of India (الديانات الهندية)[1] :

« لو نحينا بعض الإلحاقات التي لا يصعب فصلها وتنحيتها على محك النقد فإن هذه الصحيفة تبقى أصيلة وأنها لا تدَّعي عن نفسها إلا ما هي فعلاً ، فلا تدَّعي أنها من الله ، ولا تخفي عمرها الحقيقي بطريقة صناعية ، وقد زيدت فيهما زيادات وتحريفات كثيرة ، ولكنها كلها كانت بحسن الطوية ، وبالرغم من ذلك يصعب علينا تحديد عمر هذه الصحف ، وأن برهمنا (Brahmana) الصحف التي حررت في الأخير ،

= قطر سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) بعناية الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ـ رحمه الله ـ .

(١) طبعة دلهي عام ١٩٦٩ م : ص/٥٠٤ .

ليست هي بأقدم من بداية عهدنا أكثر من خمسمئة عام ، أما المواد المذكورة في « ويدا » فهي أقدم منها ، أقدم إلى حد أنه لا يمكن أن يقال فيها شيء وإن إبداء شيء من الرأي في أقدم كتاباتها أمر مستحيل ».

حتى الأساتذة الهندوس والمختصين المحققين في تاريخ الديانات الهندية ، ماذا يرون عن هذه الصحف وما هو موقفهم ، وإلى أين توصلوا بعد البحث والتفكير الحر ، يمكن أن يقدر ذلك من هذين الاقتباسين التاليين :

يقول الفاضل المعروف سريش جندرا جكرورتي (Suresh Chandra Chakravarti) المحاضر في جامعة كلكتا ، في كتابه (Philosophy of The Upanishads) (فلسفة أو بنيشدا) :

« ولقد قدمت في هذا الصدد وجهتان للأنظار ، يمثل إحداهما « بال جنجادهر تلك » ويمثل الثانية مكس مولر (Maxmullar) يرى « تلك » أن تاريخ ابتهالات « ويدا » يرجع إلى ٤٥٠٠ قبل المسيح ، على حين أن مكس مولر لا يراها أقدم من ٢٢٠٠ قبل المسيح ، رغم كونه متفقاً معه على أن « رك ويد » أقدم وثيقة للتفكير والتخيل الآري ، ويمكن ـ من دون تحديد عمر « رك ويد » ـ أن يقال إنه بالرغم من جمع ابتهالات « رك ويد » في مجموعة واحدة ، لم تحرر هي في زمان واحد ، ولذلك لا يمكن تقدير عمره بتحديد تاريخها وتحريرها ، ولا بد من التسليم بأن جميع ابتهالات « رك ويد » من أولها إلى آخرها ، ألفت على مدى قرون عديدة »[١] .

---

(١) (فلسفة أو بنيشدا) طبع كلكتا لعام ١٩٣٥م : ص/ ٢٤ ـ ٢٦ .

ويقول الدكتور « رادها كرشنن » الفيلسوف الهندي المعروف (ورئيس الجمهورية سابقاً) وهو يلقي الضوء على التصور الأساسي في « ويدا » في كتابه Philosophy Indian (الفلسفة الهندية) ، المجلد الثاني :

إن التصور الفكري الإجمالي الذي تعرضه كتب « ويد » ليس محدوداً ولا واضحاً ولذلك يمكن لمختلف المدارس الفكرية أن تستخدمه بمختلف أساليبها ومناهجها ، وعلاوة على ذلك فإن سعة هذه الكتب وضخامتها تحتمل احتمالاً كاملاً لأن يأخذ منها المؤلفون الأدلة والشواهد بحرية تامة حسب معتقداتهم وآرائهم »[1] .

أما « أوستا » صحيفة إيران القديم الدينية التي يعتقد الفرس (Persians) أنها صحيفة سماوية ، فإننا نقدِّم هنا عنها شهادة لعالم غربي كانت موضوع دراسته الخاص : يقول رابرت ح .بفائفر (Robert H. Pfeiffer) رئيس قسم اللغات السامية بجامعة هارورد (Department of Semitic Languages) في دائرة المعارف للديانات (An Encyclopedia of Religions) :

« لقد كانت « أوستا » ـ حسب ما تقوله الروايات ـ مجموعة جميع العلوم ، وقد أتلف أكثر أجزائه الإسكندر المقدوني ، ثم ألف من الأجزاء الباقية كتاب يشتمل على ٢١ جزءاً أو « نسك » (Nask) ـ كما يسمَّون ـ في القرن الثالث المسيحي ، ولكن لم يبق من هذه الأجزاء جزء كامل إلا الجزء الذي يسمى « ونديداد » (Vendidad) وحمل منه

---

(١) طبع لندن ، عام ١٩٢٧م : ص/ ٢١ ـ ٢٢ .

شيء يتعلَّق بالعبادات إلى العند بعد القرن التاسع المسيحي ، وهو الذي يوجد بها في خمسة أجزاء ، تسمى « ياسنا » (Yasna) و « جاتا » (Gatha) و « ويسبرد » (Vespered) و « و يندِيد » (Vendid) « خوردا ويستا » (Khordaavasta) :

ولكن القرآن الحميد الذي هو كتاب الله الأخير ، ومصدق لكتب الله السابقة ، ومهيمن عليها وهو المسؤول عن هداية البشر وربط المخلوقين بالخالق ودعوتهم إلى الله زمن البعثة المحمدية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ إلى يوم القيامة ، فإنه يختلف عن جميع الكتب السماوية كل الاختلاف ، فشأنه ليس كشأنها ، وقد وعد الله ـ تعالى ـ بنفسه بحفظه وصيانته من كل تحريف وتغيير ، ونقص وزيادة ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ ـ ٤٢] .

وقد حُفظ كذلك من المحو والتشويه ، وأن يستهدف للَّغو والباطل ، أو أن ينسى من الذاكرة ، ويمحى من الصدور ، أو يتعرض للتلف والضياع في حادثة من الحوادث كما وقع مع التوراة مراراً ، كل ذلك مع القرآن ممنوع :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

إن هذا الوعد الجازم للحفظ يشمل حفظ القرآن في المصاحف والصدور ، وبقاءه غضاً طرياً ، ونشره ، ورواجه ، وتلاوته وفهمه ، وأنه محفوظ من أن يهجر ، أو يعطل ، أو لا يعمل به ، أو لا يفهم أو يصبح في يوم من الأيام نسياً منسياً ، فكلمة « الحفظ » العربية البليغة

تحمل آفاقاً واسعة ، ومعاني عميقة تامة .

ولما قضى الله ـ عز وجل ـ بأن يبقى هذا الكتاب على أصالته وبجميع لوازمه ـ حسب ما أنزل على الرسول الكريم ـ ﷺ ـ وجَّهَ لتحقيق هذا الغرض الجليل النفوس البشرية ، والأسباب الطبيعية والخارجية والحوادث التاريخية ، فكلما كان رسول الله ﷺ يتلو آية كريمة ، وترنُّ في أسماع المسلمين ، إذا بهم يتقبلونها تقبلاً ، ويضمونها إلى صدورهم ، وينقشونها في قلوبهم ، ويتهافتون على حفظها واستظهارها تهافت الفراش على النور .

وقد كان من أسباب هذا التنافس والمسارعة إلى حفظه حبهم للقرآن ، وشغفهم به ، كما كان لإعجاز القرآن وبلاغته وحلاوة جرسه ، وجمال نبراته وتناسب ألفاظه ، زد إلى ذلك الآيات والأحاديث الواردة في فضل حَمَلتِهِ وحفَّاظه[1] ، تأثير أيّما تأثير ، ثم ارتباط المسلمين بالقرآن عن طريق صلواتهم وجميع عباداتهم ، وعن طريق تشريعهم وأحكام دينهم ، ومدنيَّتهم واجتماعهم ، وعلومهم وآدابهم ، في كل هذه الجوانب كان القرآن الكريم ولا يزال مصدرهم الأول ، ومرجعهم الذي إليه يرجعون .

لقد أنشأ كل ذلك في المسلمين صلة روحية قلبية بالقرآن الكريم بلغت حد تعشُّقه والهيام به ، وكثر فيهم من بداية العهد الإسلامي حفاظ

---

(١) انظر في فضائل القرآن أبواب فضائله في كتب الحديث . واقرأ رسالة « فضائل القرآن » للإمام عماد الدين الحافظ ابن كثير (م٧٧٤هـ) في آخر تفسيره المشهور .

القرآن كثرة مدهشة ، حتى استشهد في حادثة بئر معونة عام ٣هـ سبعون من المسلمين الذين كانوا يدعون « القراء » أي الحفاظ العلماء[١] ، ولم يزل عدد الحفَّاظ بزيادة نسبة المسلمين والرغبة في حفظ القرآن في ازدياد ونمو بالغين حتى أصبح حفظ القرآن الكريم منتشراً في كل مدينة وكل قرية صغيرة وكبيرة ، وفي كل مجتمع مسلم إلى حدٍّ مدهش .

ولم يزل المسلمون ينقلون القرآن الكريم من صدور إلى صدور شفاهاً وكتابة ، وبلغوا في حفظه من الإتقان والمهارة الفنية والكمال العلمي ، وفي التنافس فيه وكثرة تلاوته والتعبُّد به من الشوق والهيام ما يحيِّر الألباب ، ولا يصدقه عامَّة غير المسلمين إن ذكر لهم ، نعم ! أولئك الناس من غير المسلمين الذين يعيشون في بيئة إسلامية ولهم صلات مع المسلمين ، فإنهم يمكن أن يقدروا ذلك بعض الشيء ، وقد كان عدد هؤلاء الحفاظ في كل عصر أكثر من أن يحصى ، وإنهم الآن ليتجاوزون مئات الألوف في شبه القارة الهندية فحسب .

لقد صرف الله ـ عز وجل ـ خلفاء الرسول الكريم ـ ﷺ ـ والمسؤولين عن شؤون المسلمين إلى هذا الأمر بطريقة إلهامية ، فلما استشهد حفاظ القرآن الكريم في معركة اليمامة[٢] بكثرة مقلقة ، خافوا أنه إذا استمر القتل بمثل هؤلاء فإنه يخشى على بقاء القرآن ـ لو كان معتمداً على الحفظ في الصدور ـ ويتعرض لخطر الضياع .

---

(١) البداية والنهاية : ج/٤ ص/٧١ ، وحديث بئر معونة مشهور ، وقد أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأخرى .

(٢) كانت حرب اليمامة في أيام أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ سنة ١٢ من الهجرة ، وقتل فيها مسيلمة الكذاب .

وقد هجس هذا الهاجس أولًا في خاطر عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ الذي كان دائماً أسبق إلى تقدير مصالح المسلمين وضروراتهم ، والذي كان صوت ضميره يوافق ـ أكثر الأحيان ـ نداء الحق ومقاصد الشرع المنير ـ فتقدَّم إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ باقتراح جمع القرآن الكريم ، وكتابته في صحيفة واحدة ، كان قبل ذلك مكتوباً مفرَّقاً في الأدم والعسب[1] ، واللخاف[2] ، ومحفوظاً في صدور الناس ، فشرح الله ـ عز وجل ـ صدر أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لذلك .

وولي كاتب الوحي الأمين زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ هذا العمل ، فقام به زيد باهتمام بالغ وعناية منقطعة النظير ، وجمع القرآن من صدور الحفاظ وصحف كتاب الوحي ، ومن الأدم والعسب واللخاف المحفوظ في بيوت الناس ، وهكذا ظهرت هذه الصحيفة القرآنية المجموعة في مكان واحد ، التي يعول عليها الناس ، ويرجعون إليها .

ولما جاء عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وانبث القرَّاء والحفَّاظ بسبب كثرة الفتوح في مختلف الأقطار والأمصار ، وانهال الناس عليهم يتعلمون منهم ويقبلون على قراءاتهم ، وكانت هذه القراءات تحتمل سبعة أحرف أنزل الله بها القرآن للتيسير على الأمة العربية المترامية الأطراف في أول عهدها بهذا الكتاب ، وظهرت للناس عدة وجوه في هذه القراءات ، وسبَّبَ دخول الأعاجم

---

(١) العسب جمع عسيب ، وهو جريد النخل الذي ليس عليه ورق .
(٢) اللخاف جمع لخفة ، وهي صحائف من خطية الحجر الأبيض .

بكثرة في الإسلام اختلافاً في اللهجة والأداء ، وعدم فهم لحكمة التيسير في وجوه القراءات المتعدِّدة ، وخاف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن يؤدي هذا الاختلاف الذي سيشتد ويحتدم ـ وقد احتدم في بعض الأماكن فعلاً ـ أمر عثمان ـ باستشارة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ واتفاق عنهم ـ بأن يقرأ هذا القرآن على لغة قريش التي نزل عليها أصلاً ، وأمر بإعادة الكتابة مراعاة للغة قريش في وجوه القراءات ، وبعث بهذه النسخ إلى كل مدينة إسلامية ، واستبقى نسخة منها في المدينة المنورة تسمى « المصحف الإمام » .

وهذه هي النسخة التي أجمعت عليها الأمة ، وقبلتها وتداولتها عبر القرون والأجيال ، وعمِّرت بها القلوب ورطِّبت بها الألسن ، فحفظوا القرآن الكريم ، وتعبَّدوا الله ـ تعالى ـ ولا يزال الاعتماد إلى يومنا هذا من أقصى العالم إلى أقصاه على هذا المصحف العثماني الإمام ، ولم يختلف فيه من ٢٥هـ الذي كان فيه هذا الاتفاق على هذا المصحف المختار أي اثنين في أي مجتمع إسلامي ، ولم يعثر على كشف جديد لنسخة أخرى في أي مكتبة من مكتبات العالم ولا في أي متحف من متاحف الآثار القديمة[١] .

---

(١) يقول المستراوي منغانا (أستاذ جامعة مانشستر سابقاً) : توجد في المكتبات الأوربية نسخ خطية كثيرة للقرآن الكريم ، وأقدمها نسخة من القرن الثاني الهجري ، ولكنها كلها لا تحمل أي اختلاف لفظي ، اللهم إلا اختلافاً في اللفظ ، وهو بسبب الخلل في الخط العربي القديم ، وأبدى مثل هذا الرأي الأستاذ نولدك (Noeldeke) في دائرة معارف الديانات والأخلاق : ج/١ ، ص/٥٤٨ ـ ٥٤٩ .

لم يزل المسلمون بعد الانتهاء من عمليَّة جمع القرآن وتدوينه في المصحف مجمعين إلى يومنا هذا على الأخذ به ، ولقد حفظ القرآن الكريم بعد كل ذلك ولا سيما الآن من أن تمتدَّ إليه يد التحريف ، أو يغيِّر فيه حسب الأهواء والرغبات لكثرة حفَّاظه وحملته ، وسعة انتشاره وكثرة طباعته ، وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية الاعتراف التالي :

« إن القرآن هو أكثر الكتب على وجه الأرض تلاوة وقراءة »[١] .

ويوافق المستشرقون والباحثون الغربيون ـ الذين لا يرون القرآن كتاباً إلهياً ، نزل بطريق الوحي على محمد ﷺ على الرأي السابق ، ونسوق ـ فيما يلي ـ بعض أقوال الباحثين المسيحيين في هذا الصدد :

يقول سروليم ميور ـ الذي يعرف بالتحامل على الإسلام ورسول الإسلام محمد ﷺ والذي اضطر كتابه Life of Mohammad سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكراه الإسلامية ـ الذي كان حامل لواء التعليم الحديث للمسلمين ـ إلى أن يرد عليه بكتابه : « الخطبات الأحمدية » ـ يقول هذا الباحث : « لقد نشأت بعد مضي ربع قرن من الزمن على وفاة محمد ﷺ مناقشات حادَّة وتحزُّبات شديدة أدَّت إلى مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولا تزال هذه الخلافات موجودة الآن ، إلَّا أن القرآن المشترك بينهم هو قرآن واحد ، وإن تلاوة هذه الفرق والطوائف ـ التي ظهرت بسبب التحزبات ـ لهذا القرآن الواحد بصفة متواترة مستمرة في كل عصر حجة قاطعة على أن الصحيفة التي بأيدينا هي نفس تلك

---

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية ، تحت عنوان « محمد » ﷺ .

الصحيفة التي أعدت بأمر الخليفة السيىء الحظ[١] ، ولعله لا يوجد في العالم كله كتاب مثله بقي مدى القرون الاثني عشر على أصالته بدون تحريف وتغيير ، وإن الخلافات في قراءات القرآن هي أيضاً قليلة جداً إلى حد مدهش ، وهي كذلك بسبب الإعراب والشكل الذي كان بعد زمن طويل »[٢] .

ويقول وهيري (Wherry) في تفسيره للقرآن :

« إن القرآن هو من بين جميع الصحف القديمة أكثرها أصالة وعدم اختلاط بغيره (Purest) »[٣] .

« إن الصحيفة التي رتبها عثمان ـ رضي الله عنه ـ لم تزل من عهده إلى يومنا هذا متفقاً عليها ومعترفاً بها »[٤] .

ويقول لين بول (Lane Poole) :

« إن أكبر محاسن القرآن أصالته غير المشكوك فيها ، كل حرف نقرؤه منه اليوم يمكننا أن نثق بأنه هكذا من قرابة ثلاثة عشر قرناً من الزمن غير مغير ولا محرف »[٥] .

---

(١) يريد به سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ وقتله ، ولكنه لا يعرف أن عثمان لم يكن سيىء الحظ كان سعيداً بالشهادة ، إنما كان سيؤو الحظ أولئك الثائرون والمنتهكون لحرمته الذين لم يراعوا إلّاً ولا ذمة .

(٢) « حياة محمد » (Life of Mohammad) لسر وليم ميور Sir William Muir .

(٣) (Commentary of The Quran. Vol. 1.P.349.) تفسير القرآن ج/ ١ ، ص/ ٣٤٩ .

(٤) (The Quran Introduction. P.79) تعريف بالقرآن لوهيري : ص/ ٧٩ .

(٥) هذه المقتطفات والشواهد كلها مقتبسة من « تفسير القرآن » الإنجليزي ، للعلامة عبد الماجد الدريابادي .

لهذه الحقيقة القاطعة لم تكن للإسلام من حاجة إلى نبوءة جديدة تقضي على الشكوك والشبه ، وتميز الحق من الباطل ، وتفضح كذب الكاذبين ، ولم يكن ثمة من داع إلى كتاب آخر يحل محل الكتب المنسوخة التي كانت عرضة للتحريفات والإلحاقات والتعديلات[1] .

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [حم السجدة : ٤١ ـ ٤٢] .

* * *

(١) مقتبس من كتاب « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » للعلامة المؤلف ، ص٢٢٧ ـ ٢٣٢ ، طبع دار القلم بدمشق .

شروط الاستفادة من القرآن العظيم
موانعها ، ومؤيداتها

إن خطاب القرآن العظيم عام لجميع الجنس البشري ، ولكن كما أن قطع الأرض تختلف فيما بينها في مراتب استعداداتها وصلاحياتها ، ودرجة حاجتها إلى الماء وشدة انتظارها له ، ثم درجة الاستفادة منه والتمتع به ، وكما أن الغذاء مهما كان طيباً سائغاً ـ يختلف تأثيره من معدة إلى معدة أخرى ، كذلك القرآن ـ رغم كونه يخاطب الجميع وينزل على الجميع ـ تختلف صلاحيات الناس في قبوله والاستفادة منه والاستمتاع به ، فالشيء الواحد يتفاوت أثره وتختلف نتائجه بسبب اختلاف الأوعية الإنسانية ، والاستعدادات البشرية .

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ هذا الاختلاف للآثار والنتائج في القرآن الكريم ، وجمع بين نتيجتيه المتعارضتين في مكان واحد ، فقال :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤ ـ ١٢٥] .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

وبين الله ـ عز وجل ـ في بعض الآيات تأثيرها على المؤمنين ، وفي بعضها الآخر تأثيرها المعاكس على الكفار .

فتأثير القرآن على المؤمنين :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٢ ـ ٣] .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وتأثير القرآن على الكفار :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الحج : ٧٢] .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ ﴾ [الزمر : ٤٥] .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [التوبة : ١٢٧] .

ولكن القرآن الكريم لم يكتف بعرض هذا التأثير ذي الوجهين ، على الكفار والمؤمنين ، فيزداد المؤمنون إيماناً ، ويستفيدون من هذا الكتاب ويزدادون هدى ويزداد الكفار بعداً وضلالًا ، وعناداً ، بل ذكر صفات وعقائد وأعمال إزاء ذكر المؤمنين والكفار ، يبدو أن هذه الصفات والأعمال المختلفة المتوازية هي المؤثرة في صدور النتائج المتعارضة والآثار المتعاكسة ، ويمكننا في ضوء هذه الصفات التي ينوه بها القرآن مع الفريقين أن نشرح شروط الاستفادة من القرآن ، وموانع الاستفادة منه ، وأن نعرف ما هي الأخلاق والأعمال وما هي العقلية والتربية النفسية التي تنسجم مع القرآن الكريم وتلائمه وتساعد في فهمه والتمتع به ، وما هي العقلية والسيرة المنحرفة التي لا تليق بالقرآن الكريم ، وتجعل بين القرآن ومخاطبه حجاباً كثيفاً وتضاد نتائجه الثورية الإصلاحية المرجوة ، هذا ما سنبينه في الفصل القادم تحت عناوين متعددة .



موانع الاستفادة من القرآن الكريم

لقد ذكر القرآن الكريم موانع الهداية والاستفادة من القرآن الكريم مع ذكر شقاء الكفار، وحرمانهم، مما يدل على أن هذه الصفات والأخلاق والمعتقدات التي يتسم بها الكفار ويصرح بها القرآن، والتي تقاوم ثورة القرآن الروحية والعقيدية وتأثيره الإصلاحي العظيم، إذا تحققت في المسلمين فإنها تقع حاجزاً بينهم وبين القرآن، وتمنعهم من الاستفادة به، ونذكر هذه الصفات التي نص عليها القرآن بشيء من الاختصار :

١ ـ الكبر :

إن من أقوى أسباب الحرمان من آثار التعاليم النبوية ونتائجها وبركاتها، ومن سعادة اتباعهم والاقتداء بهم هو الكبر المنتفخ والعزة الكاذبة، والاعتداد الأجوف بالنفس وما يشبه ذلك من أمراض نفسية جاهلية .

فتارة يكون هذا الاستكبار يمنع من قبول الحق والإذعان له مباشرة، إذ أن ذلك يدعو صاحبه إلى التخلي عن جاهه وسلطانه، وتقاليده الجاهلية وطقوسه، والحرمان من كثير من الفوائد المادية الظاهرة، ويدعوه إلى ترك الحياة المطلقة من كل قيد، حياة الهوى والحرية الكاملة، والتقيد بالحياة الشرعية، والالتزام بالحدود والأحكام والضوابط .

وتارة أخرى يواجه كثير من الناس عنتاً ومشقةً في تغيرهم ، وانقلاب سيرتهم ، ويحول دونهم الاستكبار الذي يحملهم على الجحود والإنكار ، وهؤلاء الذين تصفهم هذه الآيات التالية :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية : ٧ ـ ٨] .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٣ ـ ٢٥] .

وتارة يمنعهم الاستكبار والجحود بما يرون من حالة الأنبياء المادية الظاهرة ، وقلَّة ذات يدهم ، من الاعتراف برسالتهم وتعاليمهم ، ويرون في اتباعهم والاقتداء بهم غضاضة وعاراً ، ولقد قال فرعون وهو يستكبر عن رسالة موسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٢ ـ ٥٣] .

وقال كفار قريش :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] .

وتارة تقع بشرية الرسول هي السبب المانع ـ في نظرهم ـ عن قبول الحق الذي جاء به :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : ٦] .

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٧] .

وأحياناً يعتذرون ـ مستكبرين ـ عن قبول الحق بحالة أتباعه الاقتصادية الضعيفة ، ومهانة حرفهم ، وضعة أنسابهم ، وخساسة أصلهم ، ويجعلون هذا هو المانع لهم من الاشتراك في الجماعة المسلمة :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] .

افترضوا لأنفسهم ـ لأجل إقبال الدنيا عليهم وجاههم ومواتاة الحظ لهم في المال والمتاع ـ أنهم هم المستحقون لكل خير ، وأنه لن يكون خيراً ما لم يسبق إلى أيديهم ويحضر لديهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ١١] .

هذه هي الأسباب التي يكون بها مترفو القرية وأغنياؤها وذوو الأموال الطائلة فيها أسبق الناس إلى تكذيب الأنبياء ومعارضة دعوتهم ورسالتهم وأسبقهم إلى الاستطالة والسطو والإجرام :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٣] .

وعلى كل فإن الاستكبار ـ أياً كان سببه والدافع إليه ـ ومهما كانت أشكاله ومظاهره مختلفة ـ يقع سداً وحاجزاً سميكاً دون التمتع بالقرآن والاستفادة منه .

إن الشرط الأساسي في قبول تعاليم القرآن ، وتطبيقها على النفس ، وتحكيمها في الحياة وفي الاذعان لقيادة الأنبياء وهدايتهم ، هو التواضع ، والتسليم ، والرضا والإيثار :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

٢ ـ المجادلة :

إن الجدال والمراء في القرآن بغير ما دليل وبرهان ، ومغالبته بذلاقة اللسان ، وسلاطة البيان ، والإدلاء بالآراء فيه من غير حجَّة وسلطان ، يحرم من هدايته ويمنع من رفده وفيضه وينم عن كِبْر مستور في الصدور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦] .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ : ٥] .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ

وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

٣ ـ الكفر بالآخرة وعبادة المادة :

إن الكفر بالآخرة من بين معتقدات الكفر من أشد الموانع عن التأثر بالقرآن الكريم والاستفادة منه ، لأن أساس القرآن الأول في ترغيبه وترهيبه ، ومواعظه وإصلاحاته ، هو الإيمان بالآخرة ، إنه يحذر من عواقب الآخرة ، ويطمح في ثوابها ونعائمها ، ويقدم جميع المعلومات اللازمة لهذه الرحلة الخطيرة ، ويدل على منازلها ويضيء طريقها ، ويعطي عنها تعليماته وإرشاداته ، ولأجل ذلك فإن الذين يرجون الآخرة ، ويظنون أنهم ملاقوها ، لا يمكنهم أبداً أن يستغنوا :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٢] .

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة أو يؤمنون بها ولكن رانت على قلوبهم الدنيا واستحوذت عليهم المادة ، ولا ينظرون في جميع قضايا الحياة إلا النظرة المادية البحتة ، هؤلاء لا ينفعهم القرآن ولا يؤثِّر فيهم .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥ ـ ٤٦] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٤] .

﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٢] .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم : ٢٩ ـ ٣٠] .

إن النظرة المادية المسيطرة عليهم تجعلهم من الغباوة والبلادة بمكان حيث لا تعمل عقولهم في غير الأشياء المادية ، بل تتعلق دونها وينكرون بما وراءها :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ [يونس : ٧] .

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٦] .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

وشيء آخر لا يخصُّ الكفار بل يعمُّهم وغيرهم ، هو الاستدلال بالآيات المتشابهة على الأهواء والأغراض الشخصية وإضلال الناس بالتحريفات والتأويلات الباطلة ، الذي لا يكون الدافع إليه إلا زيغ القلوب وفساد النوايا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران : ٧] .

* * *

مؤيدات الاستفادة من القرآن الكريم

١ ـ الرغبة والطلب :

إن من الشروط الأولية الأساسية للاستفادة من القرآن الكريم والانتفاع به ، هو وجود الرغبة إليه ، والطلب للاستفادة منه ، فمن لم تتحقَّق عنده الرغبة والطلب ماذا يكون تأثير القرآن فيه ؟ إن من سنة الله ـ تعالى ـ ونواميسه أنه لا يعطي إلا بالرغبة والسؤال ، وللرغبة والسؤال عنده قيمة كبيرة ، فالقلق على الوضع الراهن وعدم الاقتناع به ، والجهد للإصلاح والتغيير ، والبحث عن الطريق هو أول خطوة عنده في سبيل السعادة ، فلا بد من الأوبة والإنابة أولًا ، ثم تغير الوضع وانقلاب الحال ثانياً :

﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] .

﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

إن التولي والاستغناء عن الدين علامة على الشقاء والحرمان المبين :

﴿ فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : ٦] .

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر ١٥] .

والذين لا رغبة لديهم في الدين ، ولا يجذبهم نداء القرآن ، يتحدث عنهم القرآن فيقول :

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ٤٢] .

﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس : ٤٣] .

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل : ٨٠ ـ ٨١] .

٢ ـ الاستماع والاتباع :

إن القرآن ـ بطبيعة الحال ـ صحيفة ، وهداية وإرشاد ، فالدرجة الأولى في سلم الاستفادة منه هو الاستماع والإصغاء إليه ، فمن لم يصغ إليه ولم ينصت له كيف يرقى السلم ، وكيف يقطع مراحل الطريق ؟!

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

ولكن الاستماع المحض لا يغني من جوع ، فما اقتضى منه العمل ـ وكله يتطلب العمل ويقتضيه ـ لا بد من الأخذ به وتطبيقه والعمل عليه ، فإن العلم ما لم يصحبه عمل ، ترف عقلي ليس غير ، ولذلك أردف القرآن ذكر الاتباع بعد الاستماع .

٣ ـ الخشية والرهبة :

إن أساس القرآن الكريم على تصور الله رب العالمين وعلى خشيته

والرهبة ، والاستشعار بجلاله وكبريائه ، فمن فرغ قلبه من خشية الله ، ولم يعد لديه لاسم الله تأثير وجاذبية وجلال ، فقد أضاع رأس مال الدين ، وفقد حاسته ، وانطمست مشاعره ، ومعلوم أن من يفقد حاسة من الحواس فإنه يفقد ـ طبعاً ـ الإحساس بالمحسوسات المتعلقة بها ، ولا يمكن له بعد ذلك إدراكها ، وقد صرح القرآن بأنه يستفيد منه من يخشى الله ، ويشعر بعظمته وجلاله ، والذي لا تزال تحت رماده جمرة متقدة ، أما من ظلت مراجل قلوبهم خامدة باردة ، فإنهم يستمعون إلى القرآن بقلوب باردة ، ولا يرجعون بحرارة وقبسات مشتعلة :

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس : ١١] .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٠] .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

٤ ـ الإيمان بالغيب :

إن قطاعاً كبيراً مهماً من الدين هو ذلك الذي يتجاوز حدود الحواس البشرية والعقل البشري ، وهي تلك الحقائق الدينية الكثيرة ، التي لا يدركها الإنسان بمحض حواسه الظاهرة ، فلا يراها بالأعين ولا يلمسها بالبنان ، ولا يشمها بالأنف ، ولا يذوقها باللسان ، ولا يتدخَّل فيه العقل الكليل ، لأن مهمة العقل ليست إلا التوصُّل بمدركات الحواس الظاهرة والمعلومات المجموعة ، والتجارب السابقة إلى مدركات أخرى ومعلومات أخرى لم تكن حاصلة لديه ، أما الأشياء

التي لا يمكن إدراكها بالحواس الظاهرة ولا بالتجارب السابقة ، ولا توجد عند الإنسان مباديها وأوائلها ولا أساس للقياس والرأي فيها ، فماذ يغني العقل هناك ؟ وماذا يستنتج وعلى ماذا يقيس[1] ؟ .

إن صفات الله ـ عز وجل ـ والوحي ، والملائكة ، والآخرة ، والجنة ، والنار ، وأمثال هذه ، كلُّها حقائق لا تنافي العقل ولا تعارضه ، ولكنها وراء طور العقل وفوق حدوده وأبعاده ، وإنها من الغيوب[2] ، التي لا بد فيها من الثقة الكاملة بالأنبياء والمرسلين والإذعان الكامل لكل ما يقولون ويأتون به ، وهذا هو المراد « بالإيمان بالغيب » .

والذين هم أسرى المحسوسات والماديات في يقينهم على شيء وثقتهم به ، ويجحدون بكل ما لا تسعه عقولهم وقياساتهم ، إنهم ـ في الواقع ـ جاهلون بحقيقة الدين ، وإنه غير ميسور لهم أن يدخلوا حدود الدين وآفاقه ، إنهم لا يستفيدون من القرآن ، بل يواجهون في القرآن على كل خطوة في رحلتهم عقبات ومشاكل .

أما الذين لا يعبدون المادة ولا يخضعون لحواسهم خضوعاً كاملاً ، ويعلمون أن دائرة « الممكنات » أوسع وأوسع ، وأنها ليست

---

(١) انظر للتفصيل في الموضوع محاضرة العلامة المؤلف بعنوان « بين الدين والمدنية » في الجزء الأول من كتاب « محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي » . طبع دار ابن كثير بدمشق .

(٢) الغيب ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدري بواحد منهما بطريق البداهة .

منحصرة في الموجودات والمحسوسات ، أولئك هم العالمون بحقيقة الدين ، وإن مصدرهم العلمي القطعي ليس إلّا وحي الله ، إنهم يثقون بأخبار الأنبياء وتعاليمهم كلَّ الثقة ، فلا تواجههم مشكلة ، ولا تقطع طريقهم أي معضلة ، ويظل لهم الدين حقيقة واضحة مفهومة ، ويبقى لهم القرآن هداية منيرة ساطعة ، إنه :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة : ٢ ـ ٣] .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

إن الذين غلبت عليهم النظرة الحسية المادية واستحكمت فيهم ، يحاولون أن يحلوا حقائق من الدين هي وراء طور العقل وحدوده بدون أن يستعينوا بالإيمان بالغيب ، إن محاولتهم هذه كمحاولة من يرقى السطح بدون سلم أو محاولة من يرغب في الطيران بدون أن يكون له ريش وأجنحة ، إنه كما يحاول الصعود إلى علو ، تهبطه ماديته وكثافته إلى أسفل ، ويكون حاله كما صوَّره القرآن الكريم بأسلوبه البليغ النافذ :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

٥ ـ التدبر :

إن من شروط الاستفادة من القرآن الكريم التدبر كذلك ، وقد رغَّب

القرآن الكريم فيه وحثَّ عليه في مواضع متعدِّدة ، ووصف به المؤمنين الذين يتلون كتاب الله بفهم وتفكير ، ولا يخرُّون عليه صماً وعمياناً :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

٦ ـ المجاهدة :

إن مما يحتاج إليه ويفيد في فهم القرآن الكريم وتدبُّره وكشف حقائقه ، واتباعه والعمل به : المجاهدة وتحمل المشاق ـ إلى حد ما ـ وشيء من التضحية والكفاح ، فليس القرآن من الكتب البشرية التي يحيط أي إنسان بمحتوياتها ، ويتعرف على أغراض مؤلفيها ومقاصدهم بمجرد ذكائه وفطنته وعلمه ، بل إنه يحتاج للعلم بمقاصد الله ـ عز وجل ـ إلى مرضاته وإعانته ، فإذا تكبد الإنسان للحصول على مرضاته المشاق في سبيله ، وعمل على طهارة قلبه وتزكية نفسه ، وتحسين أخلاقه ، تقبل عليه رحمة الله ، ويدنو منه فيضه ويشرح له صدره ، ويعطيه الحكمة والعلم .

ولما أن القرآن كتاب لطيف حكيم ، فلذلك بقدر ما تكون كثافة الإنسان المادية قليلة خفيفة ، بقدرها تكون صلتها بالقرآن وانسجامه معه ، وينكشف له جمال القرآن بدون حجاب :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

والعامل الثاني : هو أن الإنسان كلما حاول وبذل جهده ، وتجشم المصاعب والمشاق لغرض ما من الأغراض ، وضحى لأجله ، فإنه يملك عليه مشاعره ، وتهيمن عليه لذته وتأثيره ، ويتكيَّف به ويحسُّ بحلاوته وبشاشته .

والعامل الثالث : هو أن معظم القرآن عملي ، ليس نظرياً ، فلا يمكن إذاً فهمه بطريقة نظرية فحسب ، إن الذي يمكنه هو أن يتعرف على كلماته ومعانيه الظاهرة ، ولكن التحقيق الصحيح لمحتوياته ، والمشاهدة لآثاره وتطبيقاته لا تمكن ـ أبداً ـ بغير تجارب يعيشها وعمل يحققه في واقع الحياة ، ولقد كانت هذه إحدى ميزات الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في فهم القرآن وإدراك معانيه .

٧ ـ التأدب والتعظيم :

من الواجب والمفيد أن يلاحظ في محاولة الاستفادة من القرآن الكريم واستمداد الهداية والفيض منه ، وتجلية القلب والروح به وتحليتهما بآثاره وحقائقه ، هذه الحقيقة المهمة ، وهي أنه ليس سجلاً للمعلومات ، ومجموعة للقوانين والضوابط فحسب ، تُقرأ وتُطالع كما يشاء الإنسان ، ويُطَّلع على ما فيها ويُستوعب مضامينها ومحتوياتها ، كلَّا إنه كلام أحكم الحاكمين ، الذي اتصف بصفات الجلال والجمال ، والعطاء والنوال ، والتي هي صفاته وأسماؤه :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر : ٢٣] .

والذي قال عن كلامه بنفسه ووصفه بقوله :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١] .

ذلك الكلام الذي يقول عنه قائله ـ سبحانه ـ :

﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣ ـ ١٦] .

ويقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[1] [الواقعة : ٧٧ ـ ٧٩] .

والنتيجة الطبيعية لذلك أن الذين يدركون شيئاً من القرآن . ويعرفون شيئاً من مكانة منزله وعظمته ، لا يمرُّ عليهم القرآن بدون تأثير وفعل وتغيير :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

---

(١) يقول العلامة شبير أحمد العثماني في حواشيه على القرآن الكريم : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ بمعنى خبر ، يعني أن أصحاب القلوب الطاهرة والأخلاق الزكية هم الذين يتوصلون إلى علومه وحقائقه ، أو بمعنى أمر ، يعني أنه لا يجوز أن يمسه إلا طاهر متوضىء كما ثبت ذلك بالأحاديث النبوية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ انتهى .
ويقول الإمام الحافظ ابن كثير : « ولفظ الآية الخبر ومعناها الطلب ، قالوا والمراد بالقرآن هاهنا المصحف ثم نقل رواية من الموطأ وهي من مراسيل أبي داود أيضاً ، أن النبي الكريم ﷺ قال : « لا يمس القرآن إلا طاهر » وقد قواه ابن كثير وإن كان في أكثر الأحاديث في هذا الموضوع نظر ، إلا أن مجموعها يثبت أن له أصلاً ثابتاً ، وأن الاحتجاج به صحيح .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

ويقول الله ـ عز وجل ـ عن هؤلاء الذين يتلون القرآن بالصفة التي قد سبقت :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢١] .

يعني أنهم يتلون كتاب الله بإكبار وإكرام يقرؤون كلام السلطان ، وهو أحكم الحاكمين ، ويطالعونه بحب وشغف كما يطالعون رسالة الحبيب الأثير .

تلك الأحاديث التي وردت في فضل القرآن الكريم بعناية ، ويفيد في هذا الصدد دراسة شيئين، أولهما: دراسة واهتمام[١] . وثانيهما : دراسة وقائع وسير الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، والفقهاء والمحدثين والعلماء الربانيين والأولياء والعارفين في كتب السير والتراجم والطبقات التي ذكر فيهم شغفهم بالقرآن الكريم وولعهم به وكيفيتهم وتأديبهم معه، واحترامهم وتعظيمهم إياه، وكيف كانت التلاوة ترقق قلوبهم وتجللهم بالسكينة وتغمرهم بالفيض ، فإنها ستكون حافزة للأشواق، مفتحة للأبصار، مؤثرة في القلوب أكثر من أي شيء آخر[٢] .

---

(١) يرجع إلى كتاب « فضائل القرآن » للإمام عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي صاحب التفسير المشهور .

(٢) يرجع للقصص المؤثرة المشوقة المثيرة للوجدان في هذا الباب إلى الكتب =

ونقل في الصفحات التالية بعض الحكايات والقصص كنماذج من الكتب الموثوق بها التي يمكن أن يقدر من خلالها كيف كان الصحابة والتابعون والعلماء الربانيون يتأدبون مع القرآن الكريم ، وكيف كان شغفهم به ، وتأثرهم وانفعالهم بقراءته .

* * *

= التالية : كتاب « قيام الليل » لمحمد بن نصر المروزي ، وكتاب « صفة الصفوة » لابن الجوزي ، و « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي ، و « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهاني .

نماذج من تدبُّر السلف وتلاوتهم القرآن الكريم وقصصهم المؤثرة

نذكر تحت هذا العنوان قصصاً للصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء الراسخين ، والأولياء العارفين ، تمثل نماذج ولعهم بالقرآن الكريم وشغفهم به ، وتأدُّبهم معه ، وإكبارهم له ، وانهماكهم في تلاوته وتذوُّقهم لحلاوته ولذَّته ، ونبدأ في سلسلة هذه القصص المؤثرة بقصة سيدنا رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن :

عن عبد الله (ابن مسعود) ـ رضي الله عنه ـ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ عليَّ ، فقلت أقرؤه عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه حتى إذا بلغت :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

غمزني غامز ، فرفعت رأسي فإذا عيناه تهملان »[١] .

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال : « قام رسول الله ﷺ حتى أصبح يتلو آية واحدة من كتاب الله ، بها يركع ، وبها يسجد ، وبها يدعو ، حتى أصبح :

---

(١) حديث متفق عليه .

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] إلخ [المائدة : ١١٨] .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً بكاءً ، لا يملك دمعه إذا قرأ القرآن » .

وعن أبي رافع قال : « كان عمر بن الخطاب يقرأ في صلاة الغداة بالمئين بالكهف ، ومريم ، وطه ، واقترب ، ونحوهن من السور ، فإني يوماً مع عمر ـ رضي الله عنه ـ في صلاة الغداة وأنا في آخر صفوف الرجال ما يلي النساء وهو يقرأ التي يذكر فيها يوسف ـ عليه السلام ـ فمر بهذه الآية :

﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] ، وكان جهير القراءة فبكى حتى انقطعت قراءته وحتى سمعت نحيبه » .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : « غلب على عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ البكاء في صلاة الصبح حتى سمعت نحيبه من وراء ثلاثة صفوف » .

وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يمر بالآية من ورده بالليل ، فيبكي حتى يسقط ، ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض »[2] .

وعن محمد بن سرين قال : « قالت امرأة عثمان حين أطافوا به

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ في مسنده .

(٢) هذه الروايات مقتبسة من كتاب « قيام الليل » للإمام محمد بن نصر المروزي : ص/٥٧ ، طبع لاهور سنة ١٣٢٠هـ .

يريدون قتله ، إن تقتلوه أو تتركوه ، فإنه كان يحيي الليل بركعة يجمع فيها القرآن »[1] .

أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الحسن قال : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ : لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا ، وإني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر في المصحف ، وما مات عثمان ـ رضي الله عنه ـ حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه »[2] .

أخرج مالك أن الفرافصة بن عمير الحنفي قال : « ما أخذت سورة يوسف إلا من قراءة عثمان بن عفان إياها في الصبح من كثرة ما كان يرددها »[3] .

وقد كان سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : « انصرف إلى جمع القرآن بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ انصرافاً كلياً حتى لم يخرج من بيته عدة أيام »[4] .

وقد وردت مثل هذه الروايات والقصص في كتب التاريخ والسير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهم

---

(١) الاستيعاب ، لابن عبد البر : ج/٢ ص/٤٤٨ ، طبعة حيدر آباد عام ١٣١٩هـ .
(٢) حياة الصحابة ، للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي : ج/٤ ص/٢٣ ـ ٢٤ ، طبع دمشق .
(٣) نقلاً عن « إزالة الخفاء » ج/٢ ص/٢٢٨ .
(٤) انظر « الاستيعاب » ج/٢ ص/٤٧٧ ، طبع حيدر آباد .

أجمعين ـ وأمثالهم من الصحابة الأجلَّة ، وعن سعيد بن جبير ومالك بن أنس ، ومنصور بن المعتمر ، وغيرهم من التابعين الكرام ، في تلاوتهم للقرآن الكريم وخشوعهم عندهم ، وبكائهم وتأثرهم .

قرأ زرارة بن أوفى وهو يؤم في المسجد الأعظم :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٨ ـ ١٠] ، فخر ميتاً ، قال بهز بن حكيم : فكنت فيمن احتمله حتى أتينا به داره .

وصلى خليد ـ رضي الله عنه ـ فقرأ :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] فرددها مراراً ، فناداه مناد من ناحية البيت : كم تردد هذه الآية ؟! فلقد قتلت بها أربعة نفر من الجن لم يرفعوا رؤوسهم إلى السماء حتى ماتوا ، من تردادك هذه الآية ، فوله خليد بعد ذلك ولهاً شديداً حتى أنكره أهله ، كأنه ليس الذي كان .

وسمع آخر قارئاً يقرأ :

﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس : ٣٠] فصرخ واضطرب حتى مات . . وعن حمزة قال : بعثتني أسماء ـ رضي الله عنها ـ (بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه) إلى السوق وافتتحت سورة الطور ، فانتهت إلى قوله :

﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٧] ، فذهبت إلى السوق ورجعت وهي تكرر ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ .

وأتى تميم الداري المقام ، فاستفتح الجاثية ، فلما بلغ :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

جعل يرددها ويبكي حتى أصبح .

وردد سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ وهو يؤمهم في رمضان :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ مراراً [غافر : ٧٠ ـ ٧٢] .

وقام ليلة ، فقرأ : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

فرددها بضعاً وعشرين مرة ، وكان يبكي بالليل حتى عمش .

وقال الليث عن مسروق ـ تلميذ ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : « كان يقرأ الرعد ما بين صلاة العشاء إلى صلاة الفجر » .

وكان هارون بن رياب الأسدي يقوم من الليل للتهجد ، فربما ردد هذه الآية حتى يصبح :

﴿ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧] ويبكي حتى يصبح .

وردد الحسن (البصري) ليلة :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] حتى أصبح ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إن فيها معتبراً ، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة ، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر »[1] .

---

(١) هذه الروايات كلها مقتبسة من كتاب « قيام اليل » لمحمد بن نصر =

وقام الإمام أبو حنيفة ليلة يردد :

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٦] . حتى أصبح[١] .

إن هذه السلسلة من هذه الانفعالات المؤثرة والاستجابة القوية للقرآن الكريم لم تزل تنتقل من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر ، واستمر شغف هذه الأمة المسلمة بكلام الله وهيامها به ، وفيض القرآن وتأثيره من دون انقطاع أو فترة ، وقد حفظ التاريخ وقائع وقصصاً مثيرة للعلماء الراسخين ، والمجددين والمصلحين ، والمحققين العارفين ، في كل عصر ، لغرامهم بالقرآن الكريم وشغفهم به ، واستغراقهم في تلاوته وأنسهم به ، ونكتفي هنا بسرد بعض القصص لكبار علماء هذه الأمة وصالحيها :

لقد كان المؤلف الشهير والمحدث الجليل والمؤرخ الناقد العلامة ابن الجوزي يختم القرآن كل أسبوع مرة ، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي ذا رغبة شديدة في سماع القرآن الكريم ، وكان يسمع في برجه من حرسه ـ أحياناً ـ جزءين وثلاثة وأربعة أجزاء ، وكان يغلبه التواضع والخشوع والرقة حتى كثيراً ما تفيض دموعه عند سماعه لتلاوة القرآن[٢] .

= المروزي : ص/٥٩ ـ ٦٠ ، طبع لاهور ، عام ١٣٢٠هـ .

(١) انظر « الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان » للشيخ أحمد بن حجر الهيثمي المكي .

(٢) النوادر السلطانية للقاضي بهاء الدين بن شداد : ص/٢٥٢ .

لما اعتقل شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في ٧/ شعبان عام ٧٢٦هـ حيث فارق الحياة وانتقل إلى الرفيق الأعلى في ٢٢/ ذي القعدة عام ٧٢٨هـ كان أكثر اشتغاله واهتمامه بتلاوة القرآن الكريم ، وقد بقي في السجن قرابة عامين وأربعة أشهر ، وختم في هذه المدة القرآن الكريم مع أخيه الشيخ « زين الدين بن تيمية » ثماني ختمات ، ولما وصل إلى قوله ـ تعالى ـ من سورة القمر في تلاوته بعد أن أكمل ثمانين ختمة : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر : ٥٤ ـ ٥٥] ترك أخاه زين الدين وأخذ في مدارسة القرآن مع الشيخ عبد الله بن محب وعبد الله الزرعي وكانا في غاية من الصلاح والتقى وأخوين شقيقين ، وكان معجباً بقراءتهما القرآن ، وما كادت تنتهي هذه المدارسة حتى انتهت أيام حياته »[١] .

وعدا هؤلاء العلماء الأعلام الذين كانت لغتهم هي العربية والذين كانت وظيفتهم ومهمتهم الدائمة هي خدمة العلوم الإسلامية ، والغوص في دقائقها ، لا تقل قصص العلماء والمشايخ الصالحين الذين ولدوا في العجم وكانت لغتهم غير العربية ، في تذوقهم لتلاوة القرآن الكريم ، وعنايتهم بحفظه وشغفهم به ، وانصرافهم كلياً إليه ، واستغراقهم فيه ، لا تقل هذه القصص إثارة للرغبة وتأثيراً في النفوس وعظة وعبرة ، ونجتزىء من مئات هذه القصص ـ فيما يلي ـ ببعض الحكايات المؤثرة ، وإن هذه القصص لا تنحصر في المشايخ المتقدمين بل تمتد

---

(١) انظر « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة المؤلف ، الجزء الثاني ، ص١١١ ـ ١١٤ .

سلسلتها إلى العلماء والمشايخ المعاصرين :

لقد كان الشيخ الكبير نظام الدين البدايوني الدهلوي (م٧٢٥هـ) صاحب تذوق خاص للقرآن الكريم ، وكان يحث على حفظه والاهتمام به ، ويرغب في كثرة تلاوته ، فلما اتصل به الأمير الشيخ حسن السجزي وبايعه ، كان كبير السن ، وكان شاعراً مفلقاً ، اشتغل به طول عمره ، فأوصاه الشيخ نظام الدين بأن يغلب ذوقه القرآني على ذوقه الشعري ، يقول الأمير في « فوائد الفؤاد » : كم من مرة سمعته أذناي يقول ينبغي أن تغلب تلاوة القرآن على قرض الشعر .

وكان الشيخ محمد بن بدر الدين إسحاق ، حافظاً مجوداً للقرآن ، يقرؤه بلحن حسن شجي ، وقد عينه الشيخ نظام الدين إماماً في الصلاة ، وكان يتمتع بقراءته ويتاثر بها ، ويغلبه البكاء ويتذوق[1] .

وكان الشيخ شرف الدين يحيى المنيري (م٧٨٦هـ) يملك ذوقاً خاصاً في تلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه ، يقول أحد تلامذته في التربية والتسليك ، الشيخ زين بدر العربي وهو يذكر أحوال وفاته :

« حضر عنده الأمير شهاب الدين أخو ملك حسام الدين بابنه ، وجلس في المجلس ، فوقع بصر الشيخ على ابنه ، وقال : هل يمكنك أن تقرأ خمس آيات ، فقال بعض الحاضرين في المجلس : إنه أصغر من ذلك ، وكان ابن السيد ظهير الدين أيضاً حاضراً ، فلما رأى الشيخ

---

(١) انظر : « تاريخ دعوت وعزيمت » بالأردوية . للعلامة المؤلف . الجزء الثالث ، ص١٢٢ ـ ١٢٣ ، نقلاً من « فوائد الفواد » ، ص٢٤٩ ، و« سير الأولياء » : ص٢٠٠ .

هلال أن الشيخ يحب أن يسمع القرآن الكريم في هذا الوقت ، دعا ذلك الولد له يقرأ خمس آيات ، ولما أحس السيد ظهير الدين أن الشيخ يريد ذلك ، أمر ابنه أيضاً بقراءة خمس آيات ، فحضر الولد وجلس متأدباً ، وبدأ يقرأ من سورة الفتح أواخر آياتها من ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ . . ﴾ إلخ [الفتح : ٢٩] ، وكان الشيخ متكئاً على وسادته ، فجلس ، وقعد كعادته متأدباً كهيئة الصلاة ، وأصغى إلى التلاوة »[١] .

ويذكر في سيرة الإمام المجدد أحمد بن عبد الأحد السرهندي أنه كان يبدو عند تلاوته لكتاب الله ـ تعالى ـ ويظهر على وجهه أن الحقائق القرآنية تفيض عليه ، وأن بركاته تنسكب وفيوضه تنهمر ، وكان إذا قرأ آيات العذاب أو الآيات التي جاءت بصيغة التعجب والاستفهام ، تجاوب معها ، وتكيَّف بها ، ولا يختم في شهر رمضان أقل من ثلاث ختمات ، كان حافظاً للقرآن ، فكان دائم التلاوة طول العام ، ويسمع القرآن الكريم في حلقاته كذلك[٢] .

كان الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (م١٣١٣هـ) يقرأ القرآن ذات يوم إذ غلبه الوجد ، فقال للشيخ السيد تجمل حسين : « إن اللذة التي نجدها في القرآن ، لو وجدتم منها ذرة ، لما صبرتم على الجلوس مثلنا ، ولخرجتم ـ تمزقون ثيابكم ـ إلى الصحراء ، ثم قال : آه ، ودخل حجرته ومرض لعدة أيام »[٣] .

---

(١) المصدر السابق : ص/٢٣٢ نقلاً من « وفات نامه » للشيخ زين بدر العربي .
(٢) حياة الإمام السرهندي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة المؤلف ، الجزء الرابع ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .
(٣) انظر : « تذكرة الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي » لسماحة المؤلف =

يقول الشيخ السيد محمد علي المونكيري : قلت مرة في بداية اتصالي بالشيخ فضل الرحمن ، له : سيدي ! إن المتعة التي أشعر بها في الشعر لا أشعر بها في القرآن !؟ فقال : ما زال الأمر بعيداً ، وإذا حصل لك القرب والترقي فاللذة التي ستجدها في القرآن لا تجدها في غيره[١] .

وقال ذات يوم : « إن الصلة الحقيقية بالقرآن غاية السلوك والإحسان »[٢] .

ويقول الشيخ الجليل عبد القادر الرائيفوري ـ أحد كبار المشايخ المعروفين في عصره ـ وهو يصف حال مربيه وشيخه الشيخ عبد الرحيم الرائيفوري (م١٩١٩م ـ الموافق ١٣٣٧هـ) :

« لقد رأيت الشيخ يقرأ القرآن الكريم ، فكان يطيل قراءته في صلاة الليل أيما إطالة ، فتارة يبكي ، وإذا جاء ذكر العذاب ، بكى واستغفر الله ـ تعالى ـ وتضرَّع إليه تضرُّعاً عجيباً يتمثَّل حال من يسأل العفو عن جريمته في ضراعة ولهف ، وإذا جاءت آية فيهما ذكر رحمة الله ـ عز وجل ـ استبشر وسر تارة ، وهدأ صامتاً أخرى » .

* * *

= نقلاً عن « ذكر رحماني » للشيخ السيد تجمل حسين : ص/٧ .

(١) انظر نفس المرجع .

(٢) انظر نفس المرجع .

بعض تجارب وملاحظات

إن للمؤلف تجربة عملية ، واقتراحاً مخلصاً ، في صدد الصلة الشخصية المباشرة بالقرآن الكريم ، والعلاقة القوية معه ، وتذوُّقه والتجاوب معه ، والاستفادة منه أكثر فأكثر ، والتقرُّب به إلى الله ، والرقيِّ عن طريقه في مدارج التوفيق .

وهو أنه ينبغي أن يشتغل بالقرآن ـ قدر المستطاع ـ مباشرة بدون وساطة ويتلى متنه أكثر ما يمكن ، ويستمتع بقراءته ، ويتذوق ويتدبر في معانيه ، فإذا كان القارىء قد حصل من العربية ما يحتاج إليه ، وتمكن من فهم القرآن الكريم مباشرة ، فعليه بقراءته وفهمه مباشرة ، وإلا فليرجع إلى الحواشي ، فعليه بقراءته وفهمه مباشرة ، وإلا فليرجع إلى الحواشي والملاحظات التفسيرية المختصرة ، ويحاول تلاوة القرآن الكريم ، وفهمه وتدبره وتذوقه من دون اعتماد وتعويل دائم على تفسير إنساني ، ومراجعة كثيرة لكتب التفاسير ، ويكتفي بذلك إلى مدة ما من الزمن ، ويحمد الله ـ تعالى ـ على ما يفتحه عليه من فهم كتابه ، وما يوفق إليه من تلاوته ، حمداً كثيراً .

يجتنب في ذلك ـ عدا مواضع الحاجة إلى البحث العلمي أو إزالة شبهة ـ البحوث التفصيلية الخاضعة للاتجاهات العصرية ، أو العصبية الجماعية ، السياسية أو القيادية ، أو التفكير الناشىء من دراسة العلوم الحديثة أو الحضارة الغربية ، إذ أنه تطغى ـ أحياناً ـ على ينبوع القرآن

النقي الصافي ، ظلال العقول والعلوم الإنسانية والأغراض الجماعية أو القيادية ، كما تغشى على العين الصافية النقية ظلال الأشجار الكثيفة الوارفة ، ثم لا تبقى فيه تلك العذوبة واللذة ، والأصالة والشفافية التي هي جوهر القرآن وروحه .

بل لقد أثبتت التجارب أن القارىء يتأثر ـ أحياناً ـ بتفهم إنسان ألمعي فاضل وتفسيره ـ وقد يكون معجباً به من قلبه ـ أكثر مما كان ينبغي له أن يتأثر بالكلام الإلهي الأصيل ، ويتسرب إلى ذهنه وشعوره أو من منفذ من المنافذ المختلفة ، أنه لولا هذا التفهم والتفسير لم يظهر هذا الجمال القرآني الذي أتمنّاه ولم تتجل لي عظمته وجلاله وروعته ، وأقل ما يتمكن من خاطره هو أنه يتعود على النظر إلى القرآن الكريم بمنظار تفسير إنساني خاص ، أو قل بمنظار أحد المفسرين والشراح أو القادة والدعاة[1] .



(١) هذا الذي ذكر هنا يتعلق بأوساط الناس من القارئين .

فهرس الموضوعات

* * *